



كلية الآداب

قسم التاريخ

حلات الرملة الثلاث ضد الصليبيين في عهد

الوزير الفاطمي الأفضل

(١١٠١ - ١١٠٥ م / ٤٩٥ - ٤٩٩ هـ)

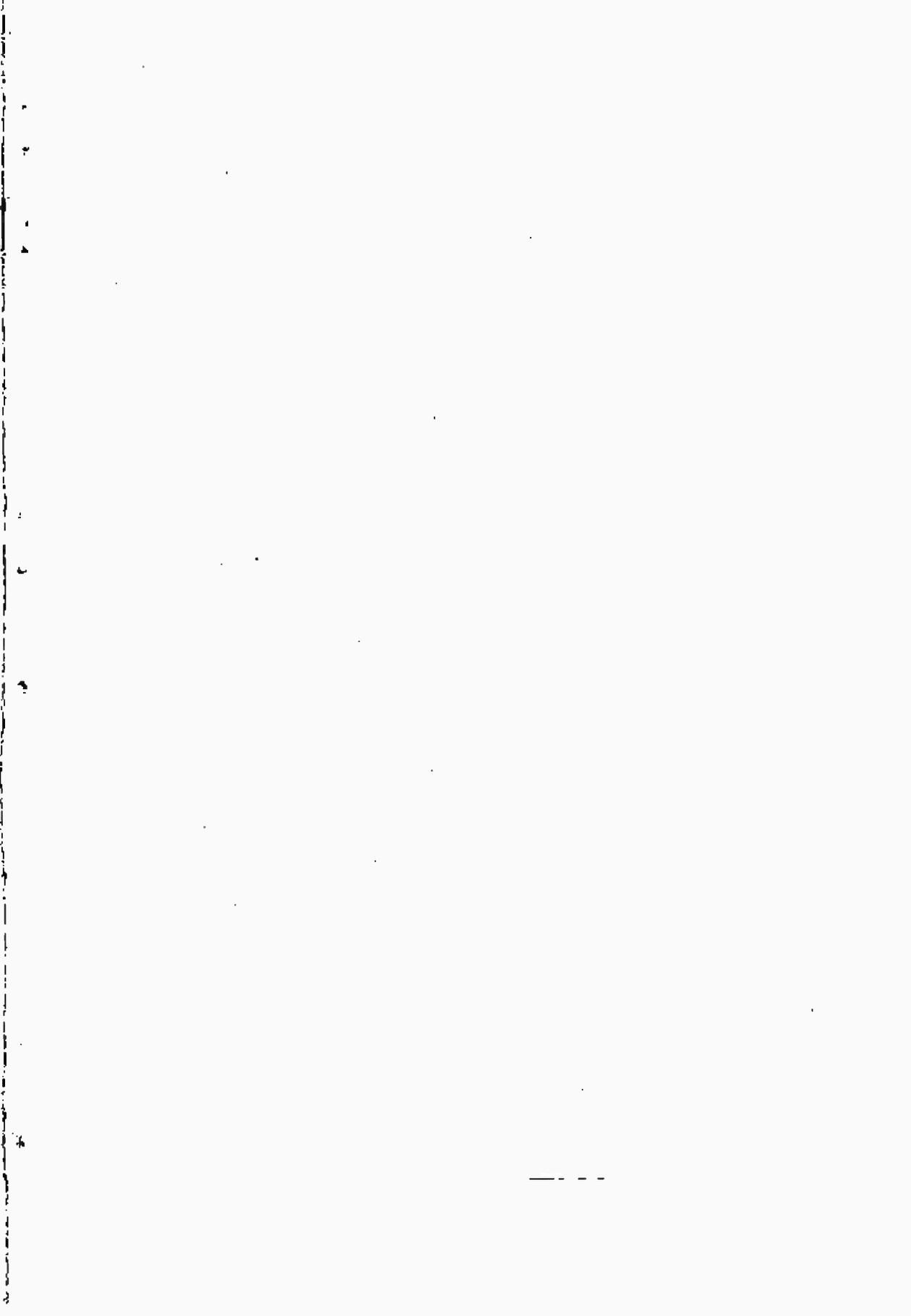
اعداد

الدكتور اسماء زكي زيد

كلية التربية - جامعة طنطا

مطبعة جامعة الاسكندرية

١٩٨١



اكتشفت العصور الوسطى التي اقتطعت من تاريخ البشرية عشرة قرون
من الزمان ، كثيراً من الظواهر والحركات التي تركت أبلغ الأثر على
مجريات الأحداث في كثير من أنحاء العالمين الاسلامي والمسيحي . ولعل من
تأهم هذه الحركات ما يطلق عليه المؤرخين اسم « عصر التوسع الصليبي
الذي شغل قرابة قرنين من الزمان ، وعلى وجه التحديد الفترة الممتدة
من أواخر القرن الحادى عشر حتى أواخر القرن الثالث عشر للميلاد
(من أواخر القرن الخامس حتى أواخر القرن السابع من الهجرة) .

ولاشك أن هذه الحروب بما تضمنته من أحداث متشابكة ومتداخلة
فيها بينها ، إنما تمثل فصلاً هاماً من فصول العلاقات بين الشرق والغرب فكان
نتجـاح الصليبيين واستيلاؤهم على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م / ٤٩٣ هـ بمثابة
الضربة القاصمة التي وجهت إلى المسلمين بصفة عامة ، وإلى الخلافة الفاطمية
في مصر بصفة خاصة . فاذا كان أولو الأمر في مصر قد أبدوا ارتياحاً كبيراً
لوجود الصليبي في المنطقة منذ بداية الحركة الصليبية - قبل الاستيلاء على
بيت المقدس اعتقاداً منهم أن قيام أملاك الصليبيين في الشام يعتبر حاجزاً
يحول دون زحف السلاجقة إلى مصر وضمها إلى ممتلكاتهم ، فالأمر اختلف
بعد أن ازدادت أطماع الصليبيين وسيطروا على منطقة يعتبرها المسلمون
ضمن أقدس البقاع الاسلامية ، وهي بيت المقدس التي كانت آنذاك في
حوزة الفاطميين . فكان من الطبيعي أن يفتق المسلمون من كبوتهم محاولين
تقمع هذه الحركة واعادة الأمور إلى طبيعتها الأولى . فوقعت المشولية على
نحاتق وزير مصر الفاطمي الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي . فأخرج
من مصر ثلاث حملات حربية في الفترة الممتدة بين عامي ١١٠١ م ، ١١٠٥ م
(٤٩٥ - ٤٩٩ هـ) ، موجهاة ضد القوات الصليبية الموجودة في فلسطين
التي ثبت للصليبيين مدى يقظة المسلمين وغيرتهم على كل شبر من الأراضي

المقدسة . ورغم بعض الانتصارات التي حققها الجيوش الاسلامية في هذه المحاولات الثلاث ، الا أنها لم تتمكن من تحقيق الهدف المنشود لها وهو استعادة بيت المقدس مرة أخرى للمسلمين في هذا الوقت المبكر من الحركة الصليبية ومن هذا المنطلق جاء اختيارنا لموضوع البحث وهو :

حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين في عهد الوزير الفاطمي الأفضل

(١١٠١ - ١١٠٥ م - ٤٩٥ - ٤٩٩ هـ)

وذلك بهدف توضيح الجهود الكبيرة التي بذلتها مصر في مواجهة التدخل الصليبي ودفعه وهو لا يزال في بدايته .

وقبل الدخول في تفاصيل الموضوع يستحسن القاء نظرة سريعة على جغرافية مدينة الرملة وطبوغرافيتها باعتبارها مسرحاً للحملات الثلاث موضوع هذه الدراسة . وكذلك التعرف على الظروف التي ساعدت الصليبيين على الاستيلاء على مدينة الرملة ، ثم استعراض أحوال العالمين الاسلامي والمسيحي آنذاك بتركيز . وكان اعتمادنا في المرتبة الأولى على الأصول والمصادر القديمة من أجنبية وعربية . وجانب من الأصول الأجنبية لا يزال بلغاته الأصلية التي دون بها كاللاتينية والفرنسية القديمة . كما أن بعض النابع العربية لا يزال خطياً لم ينشر بعد هذا إلى جانب كتب المسالك والمراجع الحديثة المتخصصة .

كانت مدينة الرملة إحدى المدن الرئيسية الكبرى التابعة لفلسطين ، وهي في نفس الوقت عاصمة لاقليم فلسطين الجنوبي حتى قبل استيلاء الصليبيين عليها عام ١٠٩٩ م / ٤٩٣ هـ (١) وكان أهم كل من الشام والمغرب

(١) الاصطخرى : المسالك والمعالك ص ٦٤ ، ابن حوقل : صورة الأرض ص ٧١

راجع أيضاً :

Staudy, Sinai and Palestine, p. 224; Benvenisti, The Crusades in the holy land, p. 167.

يطلقون عليها اسم فلسطين (١) . وهي تقع شمال غربي القدس ، تبعد عنها
 مئتان عشرين ميلاً تقريباً ، وتبعد عن عكا بعشرين كيلو متراً ، وعن
 صور بمئتين وعشرين كيلو متراً (٢) . كما تقع على بعد أربعة كيلو مترات
 من اللد (٣) . وتبعد المدينة عن الشاطئ بحوالي أربعة كيلو مترات (٤) .
 ولهذا المدينة أهمية استراتيجية كبرى باعتبارها في مفترق الطرق المؤدية
 إلى بيت المقدس (٥) . وهي تقع في احد السهول المنبسطة على ربوة قليلة
 الارتفاع (٦) . وكلما زاد الاقتراب من المدينة زادت كثرة الرمال وزاد
 عمقها لدرجة تفرس فيها الأقدام . ومن هنا كان اسم المدينة مشتق من الكلمة
 العربية «الرملة» أي المكان الرمل (٧) . وكان لهذا أثر كبير على طبيعة
 الجو هناك ، حيث أتمم بالقسوة خاصة إذا ما هبت رياح ساخنة محملة
 بالأتربة مما يجعل حياة الناس وسط هذه الظروف صعبة قاسية . ولذلك كان
 كثير من أهل المدينة يتجنبوا الاستقرار عند الطرق المرتفعة الموجودة في
 المدينة ، لتفادي ما قد يصيبهم من أضرار ناجمة عن هبوب العواصف والرياح (٨)
 ويرجع تاريخ بناء هذه المدينة إلى عهد الخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك
 (٧١٥ - ٧١٨ م / ٩٦ - ٩٩ هـ) . فعندما اعتلى عرش الخلافة الاموية
 عام ٧١٥ م / ٩٦ هـ أعرب عن استيائه الشديد من اتخاذ مدينة اللد المسيحية
 عاصمة للاقليم الجنوبي من فلسطين . فشرع عام ٧١٧ م / ٩٨ هـ في
 وضع أساس مدينة جديدة ، هي مدينة الرملة . وعند الانتهاء من بنائها

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٩ .

(٢) رحلة بنيامين الصليل ، ترجمة عزرا حداد ص ١٠٨ ، مؤلف مجهول : مرصد الاطلاع
 ج ١ ص ٤٨٣ ، الانصاري النمشق : تحفة الدرر في عجائب البر والبحر ص ٢٠١ ، أبرنشد
 تقويم البلدان ص ٢٤٩ ، ناصر خسرو : المصدر السابق نفس الصفحة .

(٣) Sanuto, Description of the holy land, p. 18; smith, The Historical
 Geography of the holy land, p.165.

(٤) ناصر خسرو : نفس المصدر والصفحة .

(٥) Benvenisiti, op. cit., p. 168.

(٦) Ibid; Hand Book for travellers in Sinai and palestine, p. 262.

(٧) Lamb, The Crusades p. 189.

(٨) Stanly. op. P. 224.

هاجر اليها معظم سكان مدينة اللد . وأصبحت منذ ذلك الوقت مركزاً هاماً في المنطقة ومصدراً للقوى المحيطة بها (١) .

ولعل من أهم المعالم المعمارية الرئيسية في مدينة الرملة ذلك البرج الضخم الذي يقف على ربوة عالية تبعد مسافة ربع ميل من المدينة نفسها (٢) وقد اختلف المؤرخون الحديثون حول تاريخ بناء هذا البرج وانتهى الرأي إلى أنه ينتسب إلى الامبراطورة هيلانه (٣) . وظل على نفس حالته حتى الغزو الصليبي للمنطقة والامتلاء على المدينة عام ١٠٩٩ م / ٤٩٣ هـ . فأدخل الصليبيون عليه بعض التعديلات والاضافات ، وانشأوا بجواره ديراً للرهبان ومكاناً خاصاً لجماعة الفرسان الداوية . وقد استخدمت قمة هذا البرج لتكون قبة لجرس الدير (٤) .

وكان يوجد أيضاً بالرملة حصن كبير مزود بابرار عالية يرجع تاريخ بنائه إلى الملك بلدوين الأول ملك مملكة بيت المقدس اللاتيني (٥) (١١٠٠ - ١١١٨ م / ٤٩٤ - ٥١١ هـ) وكانت المدينة تضم كثيراً من العناصر الاسلامية والمسيحية . أما بالنسبة للعنصر اليهودي المتواجد هناك ، فكان في بداية الأمر قلة بالنسبة للعنصرين الآخرين . ولكن سرعان ما زاد عدد اليهود بشكل ملحوظ في بدايات القرن الحادي عشر الميلادي (أوائل القرن الخامس الهجري) (٦) .

(١) أهر الفدا : المصدر السابق من ٢٤١ ، الانتصاري دمشق : المصدر السابق من ٢٠١ انظر كذلك من المراجع الأجنبية :

Benvenisiti op.cit., 167; Hand Book for travellers in Sinai and Palestine, 263; Margoliouth, Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 198.

Alphonso de la Martine, Travelles in the East, p. 137; (٢)
Franklin, Palestine, Depicated and Described, p. 18.

(٣) المقصود بها أم الامبراطور الروماني قسطنطين (٣٠٥ - ٣٣٧ م) .

Hand Book for travellers in Sinai and palestine, p. 262. (٤)

Fabri, cf. Palestine pilgrim's Text Society, 11, pp. 403 — 404. (٥)

Benvenisiti, op.cit., p. 167. (٦)

وتعرضت مدينة الرملة خلال هذا القرن لعديد من الكوارث التي حلت بها . ففي عام ١٠٢٥م - ٤١٧ هـ أصابها الخراب على يد غزو بعض قبائل البدو لها (١) . وفي شهر ديسمبر عام ١٠٣٣م - المحرم ٤٢٥ هـ دمر أحد الزلازل معظم مبانيها ، ولكن دون أن يصاب أحد من سكانها بسوء (٢) . ورغم كل هذا فقد تحمل الأهالي كثيراً من أجل إعادة بناء المدينة من جديد ، وتجميلها في صورة أحسن مما كانت عليه . إذ يتضح من كتابات الرحالة ناصر خسرو في كتابه «سفرنامه» أثناء زيارته للمدينة عام ١٠٤٧م - ٤٤٠ هـ بأنها مدينة جميلة بها سور حصين من الحجر والجص وعليه أبواب حديدية . كما أشار إلى مدى اعتماد الأهالي هناك على مياه الأمطار ، فاهتموا ببناء حوض فوق كل منزل لجمع مياه الأمطار لتبقى ذخيرة دائمة لهم (٣) . ولكن إذا كان الأهالي قد عانوا كثيراً من أجل إعادة ترميم المدينة ، فلم يكذب ستريجون حتى تعرضت للمرة الثانية عام ١٠٦٧م - ٤٦٠ هـ لزلازل آخر أشد عنفاً من الأول ، وقد قضى على عدد كبير من أهالي المدينة ، بلغ عددهم حسب آخر الإحصائيات ما يقرب من عشرين ألف نسمة (٤) .

يتضح مما سبق مناعة مدينة الرملة مما جعلها عزيزة لا ترام . ومع ذلك لم يجد الصليبيون في حملتهم الأولى ضد الشرق الأدنى الإسلامي ، صعوبة كبيرة في الامتلاء عليها ، وكان لهذا أيضاً أسبابه ودوافعه ، فيعد أن استولوا على كل من الرها وأنطاكية في عام ١٠٩٨م - ٤٩٢ هـ ، وأسما أمارتين بها ، عقدوا العزم على السير نحو بيت المقدس . ولكن حدث انقسام في الرأي بين الصليبيين حول أفضل الطرق التي يجب أن يسلكونها وهم في الطريق

(١) Benvenisiti, op.cit., p. 167.

(٢) Ibid.

(٣) ناصر خسرو : المصدر السابق ، ص ١٩ .

(٤) Benvenisiti, op.cit., p. 168.

إلى بيت المقدس . وكان الرأي الغالب يؤيد فكرة السير بحذاء الساحل حتى يتمكنوا من الحصول على كل ما يحتاجونه من تموين و امدادات من كل من السلطات البيزنطية وقبرص ، فضلا عن امكانية مساعدتهم بواسطة الأساطيل الغرية التي اتخذت من السويدية واللاذقية قواعد لها (١) . ولكن مما لا شك فيه أن هذا الطريق كان يتطلب تضحيات كبيرة ووقفاً طويلاً ، لأنه في هذه الحالة لا بد وأن يستولوا على الحصون الواقعة على الساحل . والواضح أن القوة الضاربة للجيش الصليبي كانت لا تتجاوز وقتذاك ألف فارس وخمسةائة من المشاة ، وهو عدد قليل جداً لا يتناسب مع حصار هذه الحصون الكبيرة . ولذلك رأى الفريق الآخر ضرورة السير في الطريق الداخلى المباشر إلى بيت المقدس ، حتى يتجنبوا الكثير من المشاكل السابقة . ولكن كان الاعتراض على هذا الرأي قائم على أن المنطقة بين لبنان والصحراء واقعة تحت حكم دقاق أمير دمشق (١٠٩٥ - ١١٠٤ م - ٤٨٩ - ٤٩٨ هـ) الذي يختلف عن امراء العرب ، في كفاحه وغيرته على وحدة المسلمين . فلا بد وأنه سيقاوم تقدم الصليبيين (٢) . وبعد هذا النقاش الطويل انتهى الأمر بالسير بحذاء الساحل على الا يضيعوا وقتاً كثيراً أثناء مرورهم أمام الموانئ الساحلية التي تقابلهم بل المرور السريع عليها ، والاستيلاء على كل ما يمكنهم الحصول عليه منها لضمان توفر امداداتهم لأطول وقت ، خاصة وهم يعلمون أن هذه الفترة تتفق مع موعد جنى المحصول والحصاد في هذه المدن (٣) .

على أية حال ، واصل الفرنج السير بحذاء الساحل حتى ارسوف ،

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٢٨ .

(٢) Runciman, A History of the Crusades, 11, p. 268. •

(٣) Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem, CF. R.H. C, H. occ., 111, p. 507.

وبعدها تركوا الشاطئ وتوجهوا إلى الداخل في طريق بيت المقدس ، وكان
 جود فرى دوق اللورين السقلى وقائد إحدى الفرق الصليبية (١) قد أرسل
 إلى الأمير تانكريد ابن أنجت بوهيموند النورماندى في نابلس بخبرة بأنه
 متجهاً ناحية الرملة ، ويطلب منه سرعة الحضور بالمؤن والامدادات
 لتعزيز القوات الصليبية ضد أى معركة حربية قد تنشأ مع حامية هذه
 المدينة (٢) . ووصلت القوات الصليبية إلى مدينة الرملة في مايو ١٠٩٩م
 بجمادى الآخرة ٤٩٣ هـ ، وعسكروا بجوارها او كانت المدينة آنذاك خاضعة
 لسيطرة الخلافة الفاطمية في مصر في عهد الخليفة المستعلى بالله (١٠٩٤ -
 ١١٠١ م ، ٤٨٧ - ٤٩٥ هـ) (٣) وما أن سمع أهلها بقرب وصول القوات
 الصليبية تجاههم حتى دب الذعر في قلوبهم ، وانهارت المقاومة بسبب ضعف
 حامية المدينة وقلة عددها . ثم أن بعدها عن البحر جعل مساعدة الأسطول
 المصرى لها أمراً متعذراً . ولذلك لاذوا بالفرار من دورهم بعد أن دمروا
 في شيء من التحدى كنيسة القديس جورج - الواقعة في اللد على مقربة
 من مدينة الرملة (٤) . وعندما أراد الصليبيون اقتحام أسوار المدينة لاحظوا

(١) تول حكم هذا الاقطاع عام ١٠٨٩ م . وعندما استولى على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م
 وتأسست السلطنة اللاتينية عين ملكاً عليها . ولكن لم يستمر في الحكم طويلا حيث مات بعد عامين ،
 وأصبح شقيقه بلنوين بعد موته الحاكم الثاني لسلطنة بيت المقدس . انظر جوزيف نيم يوسف :
 العرب والروم واللاتين ص ١٥٣ .

(٢) Lamb. op. cit. p. 255
 Fulcher of chartres, A history of the expedition to Jerusalem, p. 155; (٣)
 Baldrici, Historia Jerosolimitana, cf. R.H.C. — H. occ., iv. 95' cf. also :
 Conder, the Latin Kingdom, p. 157; watson, Jerusalem, p. 172.

انظر كذلك : أين القلائس ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ ، المفريزى : اعطاء الخنا
 ج ٢ ، ص ٢٣ .

(٤) Gotfridi, Anonymo Rhenani Historia et Gesta ducis Gotfridi, (٤)
 cf. R.H.C. — H. occ., V, p. 492; Roberti, Historia Iherosolimitana,
 cf. R.H.C.— H. occ., 111, p. 859; cf. also : Grousset, Histoire des Croi-
 sades, 1, p. 150; Runciman, op. cit., 1, p. 276 — 277; Benvenisiti, op.cit.,
 p. 167; Belloc, The Crusades, p. 135.

ويقال ان جهنم القديس جورج مدفون بهذه الكنيسة وانه كان احد القديسين الذين نعموا =

أن الطرقات مهجورة والدور خالية من السكان فأعتبروها لقمة سائغة لهم .
وفي الحال تقدموا في سرعة فائقة ، واستولوا عليها وهم متعطين للاستمتاع
بكثره أراضيها المنضبة الصالحة للزراعة (١) وسكنوا بها أربعة وعشرين
يوماً من ٢٤ مايو حتى ١٧ يونيو عام ١٠٩٩ م (من ٢٣ جمادى الآخرة
حتى ١٨ رجب ٤٩٣ هـ) (٢) لقد فرح الصليبيون واشتدت حماسهم
لمواصلة باقى العمليات الحربية بسبب احتلالهم مدينة الرملة الاسلامية الواقعة
في جوف الأراضى المقدسة . واقسموا على أن ينهضوا بعمارة كنيسة القديس
جورج وأن يعمرها ككلا من الرملة واللد ، وأن يجعلوا منها ثورديّة
تنتمى إلى القديس جورج ، وأن يقيموا أبرشية جديدة يتولاها أسقف اللد .
وبالفعل تقرر تنصيب أحد القساوسة النورمان ، وأسمه روبرت روان
Robert de Rouen ، سيداً على اللد والرملة معاً (٣) واستمرت مدينة
الرملة طوال حكم الصليبيين لها قاعدة خلفية للجيوش الصليبية في شتى المعارك
التي خاضوها ضد المسلمين (٤) . ولذا أدرك الصليبيون بثاقب نظرهم
أهمية المدينة ، وضرورة حماية طريق البحر الموصل لبنت المقدس . ولذا
عندما فكروا في الرحيل منها للتوجه إلى يافا ، تركوا بها حامية صغيرة
لحراسها ضد أى محاولة غزو يقوم بها الفواطم في مصر بهدف استعادتها
مرة أخرى (٥) .

وجدير بالذكر في هذا المقام ، أن هذا النجاح الذى احرزه الصليبيون
في استيلائهم على مدينة الرملة وغيرها من المدن الاسلامية الأخرى ،

٥ بالشهادة في هذه البقعة من الأرض من أجل احياء ذكرى المسيح وتمجيدته. انظر أعمال الفرنجة
و حجاج بيت المقدس ، ترجمة الدكتور حسن حبشى ص ١١٤ .

(١) Gotfridi, op. cit., Loc. cit. (١)

(٢) Fulcher of charters, op. cit., p. 155. (٢)

(٣) Runciman, op. cit., I, p. 227; Grousset, op. cit., I, p.150. (٣)

(٤) Henvenisiti, op. cit., p. 168. (٤)

(٥) Ibid; Beilloc, op. cit., . 135; Grousset, op. cit., p. 150. (٥)

وتأسيس الإمارات اللاتينية الأربع وهي الرها في أعلى الفرات ، وانطاكية في أعلى الشام ، وطرابلس على الساحل الشامي وأخيراً بيت المقدس في قلب فلسطين ، لا يرجع إلى قوتهم أو كثرة عددهم ، ولا يعزى إلى المساعدات التي كانوا يتلقونها من الغرب ، وإنما يرجع أساساً إلى تفرق كلمة المسلمين وقتها ، لأن القوات الصليبية عندما تغلبت إلى الشرق الأدنى لم تصادف قوات إسلامية متحدة ، بل صادفت قوى متفرقة متنازعة ، بسبب سوء الحالة السياسية في العالم الإسلامي آنذاك (١) .

فكانت الخلافة العباسية تعاني كثيراً من الضعف والانحلال بسبب كثرة الثورات والحركات المذهبية والدينية داخل الدولة ، مما أدى إلى تقلص نفوذ الخليفة العباسي ولم يعد له أى ظل من السلطان آنذاك . خاصة وأن الخلافة العباسية كانت منصرفة إلى محاولة التشكيك في نسب الفاطميين والشيعة وإعادة المذهب السني إلى مكانته الأولى (٢) .

أما بالنسبة للخلافة الفاطمية ، فلم تكن بأحسن حالا من الخلافة العباسية فقد بدأت عوامل الضعف تنخر في كيانها منذ أواخر حكم الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ - ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) . فبلغت درجة كبيرة من التدهور ، مما أدى إلى انسلاخ كثير من أملاكها في بلاد الشام عنها . كما كانت في هذا الوقت مشغولة في محاولة النزاع زعامة العالم الإسلامي من الخلافة العباسية وتقويض دعائمها وإحلال المذهب الشيعي بدلا من المذهب السني (٣) .

-
- (١) محمد الشيخ : الجهاد المقدس ، ص ٩ .
(٢) الأربيل : خلاصة الذهب المسبوك ، مختصر من سير الملوك ، تحقيق مكي جاسم ص ٢٢١
٢٢٢ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٥٦ .
(٣) القرظي : أقطاب الحنقا ، ج ٢ ، ص ٢٧ ، جمال الدين الشيال : تاريخ نصر الإسلاميه
ج ١ ، ص ٢٤٣ ، محمد الشيخ : المرجع السابق ص ٣٦ .

هذا فيما يتعلق بكل من الفراطيم وبنى العباس ، أما بالنسبة للقوة الثالثة في المشرق الاسلامي فهي الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى : فقد أصبحوا في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس الهجرى) في حالة من التوضى والاضطراب والانتقام السياسى والأسرى . وبدأ التفتت يظهر على ممتلكات هذه الدولة التى انقسمت إلى وحدات سياسية صغيرة تنافس كل منها الأخرى في بلاد الشام(١) . وقد بلغ العداء بين الفاطميين والسلاجقة أن الدولة الفاطمية الشيعية في مصر ، والتى كانت في طور الاحتضار وقتذاك ، كانت لا تدرك طبيعة الحركة الصليبية وهدفها ، بدليل أنها رأت في وصول القوات الصليبية فرصة ذهبية لاستعادة ممتلكاتها الضائعة بالشام ، والتى كان قد استولى عليها السلاجقة وأولها بيت المقدس . ففكرت في مشروع التحالف مع تلك القوة الجديدة ضد خصومها من أهل السنة ، وهم الخلافة العباسية في بغداد والأتراك السلاجقة في الشام (٢) ، بحيث يقف الفرنج عند النطاكية ويستولى الفاطميون على بيت المقدس (٣) . وكان من الطبيعى أن يوافق اللاتين على مثل هذا التحالف ولو مؤقتاً ، إذ سيضمنون وقوف الفاطميين على الحياد في الصراع بينهم وبين السلاجقة مما يتيح لهم فرصة القضاء على مقاومتهم في أعالي الشام . وبذلك يتسنى لهم التفرغ لمقاومة الفاطميين بعد ذلك . وهذا ماحدث تماماً ، فأستولى الفاطميون على القدس في أغسطس ١٠٩٨م - شعبان ٤٩١ هـ . ولكن سرعان ما تبدد هذا الحلم الذى عاشه الفاطميون بمجرد تقدم الصليبيين جنوباً وانتراعهم بيت المقدس منهم في يوليو ١٠٩٩م ، شعبان ٤٩٢ هـ .

وإذا كان هذا هو حال الشرق الأدنى الاسلامى في الفترة المعاصرة

(١) سيد عاشور: المرجع السابق ج ١ ص ١٤ ، محمد الشيخ : المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢) Chalandon Histoire de la Première Croisade, p. 196.

(٣) Stevenson, The Crusaders in the East, p. 26.

لموضوع البحث فليس معنى هذا أن الغرب الأوروبي - الذي أمد الحركة الصليبية بمساعدات مستمرة - لم يكن يعاني من الفوضى والاضطراب . فقد كانت أحوالهم تنسم بمظاهر المنازعات والحروب ، فضلا عن الانشقاقات الدينية بين رأسى العالم المسيحي الغربي وهما البابا والامبراطور هذا بجانب الخلافات القائمة بين الكنيستين الأرثوذكسية الشرقية والكاثوليكية الغربية (١) .

على أية حال ، كان انتشار نيا سقوطيبت المقدس في أيدي الصليبيين عام ١٠٩٩ م ، ٤٩٢ هـ بمثابة الضربة القاضية التي وجهت إلى العالم الاسلامي بصفة عامة ، وإلى الخلافة الفاطمية في مصر بصفة خاصة . ولكن إذا كان الفاطميون في مصر قد اعتادوا السكوت من قبل عند استقطاع أى جزء منهم في الشام بمعركة الصليبيين ، فلم يكن هذا حالهم عند ذلك . فأخذ الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي (٢) يفكر جديداً في استعادة هذا الجزء

(١) لمزيد من التفصيلات من هذا الموضوع انظر : جوزيف نيم يوسف : العرب والروم واللاتين من ٩٢ وما بعدها ، سيد عاشور : أودوبا العمور الوسطى ج ١ ص ٣٣٨ - ٣٩٤ ومن المراجع الأجنبية انظر :

Setton, A history of the Crusades, pp. 3-31 Stanley, Europe in the Middle Ages, pp. 329 — 365.

(٢) هو أبو القاسم شاهنشاه الملك الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي ، كان أبوه أرمي الجنسية ، وكان من الرجال المتعودين من قوى الآراء والشهامة والقوة . وقد استنابه الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) بمدينة صور . ولكن لما ضعفت أحوال البلاد المصرية استدعاه الخليفة عام ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م لتدبير أمور التولية بمصر ، فأصلح الحال بها . ولما الحال بها . ولما اشتد به المرض مهد الأمور لابنه الأفضل لتولية أمر الوزارة عن بعده . وكان الأفضل حسن التدبير ، وهو الذي نصر المستنصر على أخيه نزار وأقامه على حكم مصر خلفاً لأبيه المستنصر بالله وفي نفس الوقت له الفضل في مناصرة الأمر بأحكام الله لتولية أمر الخلافة بعد وفاة المستنصر عام ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م . وقيل أنه حجب عن الخليفة الأمر ومنعه من ارتكاب الشهوات ، فمسل هذا على قتله ، فعرض عليه جماعة من الاسماعيليين فقتلوه في رمضان عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م . ولكن قيل رأى آخر في مقتله خلاصته أنه لما أشتت هجرات الصليبيين على مدينة صور وعجزت الدولة الفاطمية عن تجديتها ، استنجد أهلها بطفتكين صاحب دمشق فأرسل إلى الوزير الفاطمي الأفضل يسأله فوائده على احتلال المدينة وحمايتها =

العزیز لدى كل الأمة الاسلامیة . فانتہز فرصة انصراف الملك الصلیبی
بلدوین (۱۱۰۶ - ۱۱۱۸ م ، ۴۹۴ - ۵۱۲ هـ) مع معظم قواته فی حصار
قیاریه (۱) ، ثم انشغاله فی تقسیم الغنائم الی حصل علیها الصلیبیون عقب
سقوط المدینة فی أیدیهم فی ۱۷ مايو ۱۱۰۶ م ، ۲۳ جمادى الآخرة ۴۹۴ هـ
وأعد جشاً کبیراً تجاوز العشرین ألف مقاتل ، خلاف الأخرین الذین
كلفهم مهام أخرى غیر القتال مثل حمل الأمتعة وتجهیز المؤمن (۲) . وأسند
أمر قيادة الجیوش الغنبرة إلی الأمير سعد الدولة الطواشی الحاکم السابق

= لا تسقط فی أیدی الصلیبین . ولكن أثارهذالموتف غلاة الشيعة فی مصر والشام فترى له
الحض من رجال الفداریة الاسماعیلیة أثناء ذهابه إلی مخزن السلاح وطعنوه بمناجرهم وأصابوه
إصابة خطيرة عجلت بوفاته ، وكان عمره حينذاك سبع وخمسين عاماً . وقيل أنه ترك ثروة
طائلة تضمن أموالاً لا تحصى وتحققا يعجز عن وصفها . انظر : المقریزی أتعاط الحفا ج ۲ ،
ص ۳۳۱ ، ج ۳ ص ۶۱ - ۶۲ ، ابن خلکان : وفیات الأعیان ج ۲ ص ۱۱۰ ، ابن أیك
کنز الدرر ج ۶ لوحة ۳۴۱ ، العباد الخليل : شذرات الذهب ج ۴ ص ۴۷ ، النوری :
ج ۴ ص ۴۷ ، النوری : نهاية الأرب ج ۲۶ لوحة ۱۰۹ انظر أيضاً :

Defremery, Nouvelles Recherches sur les Ismaéliens au Bathinicus
de syrie, p. 403.

(۱) تقع قیاریة علی ساحل البحر المتوسط ، وتبعد عن یافا ناحية الشمال بحوالی ۲۰ ميلا
ومن بیت المقدس من ناحية الشمال الغربي بحوالی ۶۲ ميلا ، ومن عكا بحوالی ۳۶ ميلا ، وقيل أنها
بنيت عام ۲۲ ق . م . وكانت المدینة تمتع بأسوار حصينة وأبراج عديدة ، فضلا عن مرسى
خبيث لا يتسع إلا لمركب واحدة . واستولى الصلیبیون علیها عام ۱۱۰۶ م / ۴۹۵ هـ ،
واستردھا المسلمون منهم عام ۱۱۸۷ م / ۵۸۳ هـ . وبعد ذلك أحطت تفرع بين الطرفين إلی أن
سقطت نهایتاً فی أیدی المسلمین عام ۱۲۶۵ م / ۶۶۴ هـ . انظر : رحلة بنيامين التليل
ص ۹۴ ، ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ۱۸ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ص ۲۳۸ ،
الادريسي : زهرة المشتاق ، رقم ۶۵ ، خليل خوري : خرابات سوريا ص ۳۳ - ۳۴ .
ومن المراجع الأجنبية راجع أيضاً :

Müller, Castles of the Crusades, p. 24; Banister, A Survey of
holy Land; p. 27 Taylor, La Syrie, l'Egypte et la Palestine, p. 267.

Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem et. (۲)
R.H.C. — H. oec III, p. 527, Gotfridi, op. cit., p. 505.

هذا ، وإن كان المؤرخ الانجليزي رانسيمان يرى أن السبب الحقيقي لخروج هذه الجيوش من مصر إنما يرجع إلى رغبة الوزير الفاطمي الأفضل في الانتقام من الهزيمة التي منيت بها الجيوش الاسلامية أمام القوات الصليبية في معركة عسقلان التي تمت في أغسطس عام ١٠٩٩ م ، رمضان ٥٤٩٣ هـ (٢) . ولكننا نختلف في الرأي مع ما ذكره رانسيمان . إذ أن وجهة نظره تعبر عن نوع من أنواع المكابرة والتعصب ليني جلدته ، بل والاصرار على عدم الاعتراف بأهمية مصر ومحاولاتها في الوقوف ضد القوات الصليبية ، وبالإضافة التي يدت عليها عندما أدرك حكامها الفواطم مدى الخطأ الذي ارتكبوه في حق العالم الاسلامي عندما تحالفوا مع الفرنج ضد المسلمين أنفسهم من عباسيين وسلاجقة ، فأناحوا الفرصة للتوغل الصليبي في المنطقة . فواضع أنهم أرادوا أن - يصلحوا ماتج عن هذا الخطأ بقيام عدة حملات هدفها استعادة ماسلبه الصليبيون منهم . ولعل ما يعزز هذا القول أنه إذا كان هناك الأمر يتعلق بالانتقام فقط - وفق ما أشار رانسيمان - ما كان هناك أي داع لتصميم الوزير الفاطمي الأفضل على ارسال حملة ثانية عام ١١٩٢ م ، ٤٩٦ ثم ثالثة ١١٠٥ م ، ٤٩٩ لتحقيق نفس الهدف . فضلا عن المحاولات الأخرى والتي قام بها عام ١١٠٦ م - ٥٠٠ هـ والتي حققت فيها الجيوش الاسلامية ما لم تحققه خلال الحملات الثلاث السابقة هذا ، بجانب المحاولة التي تبناها الوزير الأفضل عام ١١١٠ م - ٥٠٤ هـ والتي تمكنت خلالها الجيوش الاسلامية من الوصول إلى أسوار بيت المقدس مكشحة أمامها المقاومة الصليبية التي اعترضت طريقها . ولكن ما لبثت أن انسحبت تلك الجيوش .

(١) ابن القلائس : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٠ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٣٦٤
 العيني : عند الجمان ، ج ٢٠ لوحة ٤٩٦ ، ابن تغزي بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٥٢
 راجع كذلك :

Grousset, op.cit., I, p. 224.

Runciman, op. cit., I, p. 73.

(٢)

هذا فضلا عن أن كثيراً من المؤرخين المعاصرين لهذه الفترة أمثال البرت ديكس ، وجوتفريدي Godfridi ، والمؤرخان المجهولان في كتابيهما «تاريخ بيت المقدس» وأعمال الفرنجة ، قد ذكروا أن سبب الحملة التي شنها الوزير القاطن الأفضل ضد الصليبيين عام ١١٠١م - ٤٩٤هـ كانت تهدف قتال الفرنج بالشام واستعادة بيت المقدس (١) .

على أية حال ، تجمعت الجيوش المصرية في مايو ١١٠١م - شعبان ٤٩٤هـ أمام عسقلان باعتبارها مركز لانطلاق ورحيل كل الفزوات المصرية الموجهة ضد الصليبيين في فلسطين فيما بعد (٢) . وأخذت الحملة المصرية الأولى طريقها ناحية بيت المقدس . وعندما اقتربت من مدينة الرملة أدرك سعد الدولة ، قائد الجيش المصري سرعة تحرك الجيش الصليبي بقيادة الملك اللاتيني بلدوين من قيسارية في طريقة إلى الرملة ، بعد أن ترك حامية صغيرة في قيساريه لحمايتها ضد أي محاولة اسلامية تهدف استعادتها . ولهذا اضطر الأمير المصري أن يتقهقر للوراء مع قواته والعودة إلى عسقلان . واستمر بها أكثر من شهرين طلباً للراحة وانتظاراً لوصول امدادات جديدة . أما من ناحية بلدوين ، فبعد أن وصل إلى الرملة عمل على تحصينها ثم تركها متجهاً إلى يافا لمراقبة تحركات المصريين . وظل بها طوال شهر يونيو من نفس للعام (١١٠١م - ٤٩٤هـ) وبعدها توجه إلى بيت المقدس حيث قضى هناك شهري يوليو وأغسطس من نفس العام بقصد جمع المال والرجال (٣) .

(١) Godfridi, op.cit., p. 505 ;Anonymous, Gesta Francorum Expu-
gnatum Iherusalem, cf. R.H.C. — H. occ. III, p. 527; Anonymous,
Historia Hierosolimitana, cf. R.H.C. — H. occ., IV, p. 559 Albert
d'Aix, Historia Hierosolimitana, cf. R.H.C.—H. occ, IV, p. 459. (٢)

Grousset, op. cit., I, p. 224; Stevenson, op. cit., p. 48; Besant,
The History of Jerusalem, p. 244.

Godfridi, op. cit., p. 505; Anonymous, Historia Hierosolimitana (٢)
cf. R.H.C. — H.occ., IV, p. 559. cf. also : Grousset, op. cit., I, p. 225.

ولكن خلال الأيام الأخيرة من شهر أغسطس عام ١١٠١م - ذى القعدة ٤٩٤ هـ نهب إلى علمه تحركات كثيرة للجيش المصري ، على اثر وصول امدادات جديدة اليه ، بهدف المسير تجاه بيت المقدس . ولذلك جمع رجاله من القدس وطبرية وقيساريه وحيفا ، وكان لحرواً متعجلاً في هذا الشأن . ورغم ذلك لم يكن معه سوى مائتي وستين فارساً وتسعمائة راجل ، في حين أن جيش المسلمين تجاوز العشرين ألف مقاتل (١) . وجدير بالذكر أن سكل من المصادر الاسلامية والغربية لم تعلق سبب عدم امكانية الملك بلدوين في جمع عدد كبير من المقاتلين الفرنج يتقارب مع عدد الجيش المصري رغم أن الحركة الصليبية كانت لا تزال في بدايتها ولعلنا نرى أن هذا يرجع إلى الفرور الكبير الذي يكون قد سيطر على الملك بلدوين بسبب تلك الانتصارات الحاسمة التي حققتها جيوشه من قبل على المسلمين منذ وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الأراضي المقدسة واستيلائها على بيت المقدس عام ١٠٩٩م - ٤٩٢ هـ . فربما يكون هذا قد قلل من شأن قوة المسلمين في نظره وجعله واثقاً في الانتصار بأقل عدد ممكن من قواته .

Flucher of Chartrea, op. cit., p. 156; Gotfridi, op. cit., Loc. cit; (١) Anonymous, op. cit. Loc. cit., Anonymus, Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem, cf. R.H.C. — H. occ., III, p. 527; -cf. also : Grousset, op. cit. Loc. cit.

وجدير بالذكر أن المؤرخين الغربيين قد اعتادوا على المبالغة في ذكر اعداد الجيوش الاسلامية والصليبية على حد سواء . ولذلك نجد اختلافات كبيرة في هذا المجال بين بعض المؤرخين المعاصرين لفترة الزمنية موضوع البحث . فمثل سبيل المثال في الوقت الذي يذكر فيه البرت ديكس ان عدد جيش المسلمين المشترك في هذه الحركة بلغ ٢٠٠ ألف مقاتل ، نجد مؤرخاً آخر اجمهولا يذكر في كتابه أعمال الحجاج ان عددهم ٢٠ ألف راجل و ١٥ ألف فارس . بينما يشير فوشيه أوف شارتر ان عددهم كان ١١ ألف فارس وعشرين ألف راجل ، وهكذا ولذا لن نهم بذلك هذه الاعداد ، والنتائضات في هذا الشأن ، ولن نخوض في تفاصيل سبب هذا الاختلاف على مدى صفحات البحث ، لأنه يات من الواضح انه ليس للأرقام معنى سوى أنها تدل على مدى ضخامة الجيش لكلا الطرفين ، في وقت لم توجد فيه احصائيات يمكن الاعتماد عليها .

على أية حال ، بعد عدة أيام كانت الجيوش الإسلامية قد تحركت من عسقلان إلى مدينة الرملة وعسكرت بجوارها . ولما علم الملك بلدوين بهذا الأمر عقد تحت أسوار مدينة يافا مجلساً للحرب قرر فيه سرعة التوجه لمواجهة المسلمين . وعند ذلك أتى ارنول مالكورن — Ernol Malcorn رئيس الشمامسة خطبة حماسية لاثارة مشاعر المقاتلين . ثم تبعه هوريس المندوب البابوي بتلاوة نصوص الغفران . وبعد ذلك تحرك بلدوين على رأس قواته ناحية مدينة الرملة ، ثم عسكر بينها وبين اللد (١) ، وكان الجيش الصليبي حينذاك ينقسم إلى خمس مجموعات ، تولى قيادة المجموعة الأولى الفارس بيرفولد Bervold ، وقاد المجموعة الثانية جيلدمار كارينل Geldemar Carpenel سيد يافا ، أما المجموعة الثالثة فكانت تحت قيادة هودى سانت أومر Hugue de Saint — Omer سيدطرية . بينما كان القسم الآخران يتكونان من فرسان بيت المقدس برئاسة الملك بلدوين نفسه (٢) . وكان الملك قد أخذ على عاتقه في بداية الأمر مسئولية حمل الصليب المقدس لادخال الطمأنينة في نفوس المقاتلين (٣) . وعندما لمح بلدوين وباقى أفراد جيشه من بعد مدى ضخامة الأعداد التي تتألف منها الجيش المصرى ، سرعان مادب الذعر في قلوبهم ، وانهارت مقاومتهم ، وهبطت روحهم المعنوية للفارق العددي الكبير والواضح بين الطرفين . ولذا بات من الضروري على الملك بلدوين أن يعيد التفكير أكثر من مرة قبل الاشتباك مع جيش المسلمين ، ولو اضطر الأمر للانسحاب من ساحة الميدان وذلك لأن مجرد مرافقة الملك على بدء الحرب ضد هذه الأعداد الغفيرة يعد جرأة كبيرة ومغامرة غير مضمونة النتائج ، وقد بطيح بالقوات الصليبية بأكملها .

وجدير بالذكر ، أنه عندما لاحظ الملك اللاتينى الرعب الذى سيطر على وجوه مقاتليه ، ألقى عليهم خطبة دينية حماسية ليثب فيهم الشجاعة

Gotfried, op.cit., p. 505; cf. also : Grousset; op. cit., I, 225. (١)

Albert d'Aix op. cit., 549, cf. also : Grousset, op.cit.;I, p. 226. (٢)

Flucher of Chartres, op. cit., p. 157. (٣)

والإقدام على القتال حتى يتحقق النصر . وفيما يلي نص هذه الخطبة (١) .

«اتم باجنود المسيح ، لقد اتيم من بلاد بعيدة عبر البحر والبر ،
مضحين بأرواحكم من أجل نصره المسيحية . فكونوا شجعاناً ، ولا تخشوا
الموت ، ويجب أن تعتمدوا على الرب وثقوا فيه ، لأنه الوحيد الذي يمكنه
أن ينقذكم من المحنة التي تمرون بها . وثقوا أنه يحارب معكم ، ومن أجلكم ،
ومن أجل نصره الكنيسة وسائر المسيحيين (٢) . وثقوا تماماً أنه على الرغم
من كثرة عدد المسلمين فإنكم أكثر منهم شجاعة ومقدرة على خوض الحرب .
وتذكروا دائماً تلك الحروب السابقة التي حاربناهم فيها وانتصرنا عليهم واستولينا
على أراضيهم . فكان ذلك بمعاونة وتأييد الرب . فرغم استخدامهم المكر
والخدعة ، وكثرة كرائمهم ، كانوا يلوذون بالفرار من أمامنا .

واعلموا تماماً أن كثرة عددهم لن تعوق دون انتصارنا عليهم ، خاصة
وأنا نحمل معنا خشبة الصليب المقدس ، تلك البركة التي تساعدنا في القضاء
عليهم . واعلموا أيضاً أن النصر والموت كلاهما واحد عند الله ، فإذا انتصرتم
منحكم السعادة والمجد الدائم . وإذا أصابكم مكروه في المعركة ، فتأكدوا
بأنكم ستكونون شهداء في مملكة الله . وأحلبوا جيداً الهرب والخيانة ،
فكلاهما يجلب على المسيحيين العار والهزيمة (٣) .

(١) Ibid; Gotfridi, op. cit. Loc. cit.; Anonymous, Gesta Francorum (١)
Expugnantium Iherusalem, cf. R.H.C. - H. occ., III, p. 528; Ekkehardi
Abatis, Uraugiensis, Hierosulomitana, cf. R.H. C. H. occ., V, p. 32;
Anonymous, Historia Nicaenval, cf. R. H.C. — H. occ., C, p.179.

(٢) المقصود هنا بالطبع الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية وأهل الغرب المسيحي .

(٣) ويمكن الرجوع إلى نص هذه الخطبة وتفصيلها في المصادر اللاتينية التالية .

Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. — H. occ.,
IV, p. 560; Anonymous, Gesta francorum expugnantium Iherusalem,
III, p. 528; Flücher of Chartres, op. cit., 157; Gotfridi, op. cit., p. 507.

وكان لهذه الخطبة أثر كبير على الصليبيين فعادت الثقة إلى نفوسهم ، وجعلتهم يقدمون على الحرب بجرأة وشجاعة كبيرة ، دون النظر إلى الفارق العددي الكبير بينهم وبين جيش المسلمين . وسرعان ما متفوا وساعدنا يارب ساعدنا يارب « Deus adjuva nos » ثم قبلوا الصليب المقدس وابتدأوا الصلاة والضرغ إلى الله من أجل نصرتهم وتأيدهم في هذه المعركة (١) وقد ازدادوا قوة وشجاعة بعد تلك التعزيزات التي وصلتهم من بين صفرة فرسان ومشاة الغرب الأوربي (٢).

وجدير بالذكر ، في الوقت الذي كان فيه لتلك الخطبة الحماضية أثرها في الهاب شعور الصليبيين وحثمهم على مراجعة الموقف من مركز القوة دون النظر إلى عدم تكافؤ القوتين من الناحية العددية . فضلا عن عدم تقاعس أهل الغرب في مديد العون والمساعدة إلى الملك الصليبي من أجل نصرته المسيحية الغربية ومجد المسيحيين كلهم . في هذا الوقت ، لانرى أى خطوة ايجابية من سائر الدول الاسلامية الأخرى تجاه تلك الجيوش المصرية المتجمعة عند مدينة الرملة في انتظار اشارة بدء المعركة . كما أننا لم نعر في بطون المصادر الاسلامية المعاصرة للفترة التي نحن بصددھا أو المتأخرة عنها زمنا ، على أية اشارات تتضمن نخطب حماسية تحث المسلمين وتشجعهم على مواصلة القتال أسوة بما كان يحدث لدى الصليبيين .

وهذا يرجع بطبيعة الحال إلى أن ميزان القوى في الصراع بين المسلمين والصليبيين آنذاك كان في صالح الغرب اللاتيني ولذلك كان لخطبة الحماسية المشار إليها نتائجها الايجابية بالنسبة للطرف اللاتيني . وفي الجانب الآخر كان التقاعس بسبب التفكك والانقسام السياسي والمذهبي الذي عانى منه المشرق

(١) Godfridi, op. cit., p. 507, Anonymous, Gesta Francorum expugnantium Iherusalem, cf. R.H.C. — H. occ., II, p. 529; Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C.H. occ., IV, p. 862.

Anonymous, Gesta Francorum, III, p. 529. (٢)

الإسلامي . ولم تظهر الاستجابة الفورية لثيران الجهاد إلا بعد حركة الافاقة
الإسلامية في بواكير القرن الثاني عشر الميلادي (بدايات القرن السادس
المجري) عندما بدأ الشرق الأدنى الإسلامي يتكفل في جهة واحدة لمواجهة
الخطر الصليبي ودفعه .

مهما كان الأمر ، بدأت المعركة في صباح السبت السابع من شهر
سبتمبر نعام ١١٠١م - العاشر من ذي الحجة ٤٩٤ هـ ، في السهل الواقع
جنوب غربي مدينة الرملة . وكانت تقسم بالشراسة والعنف ، لا رحمة
فيها ولا هوادة (١) . وقد أبلى فيها المسلمون بلاءاً حتماً حتماً أشار كثير
من المؤرخين الغربيين ، إذ اعترفوا صراحة بتلك الشجاعة النادرة التي
أبرزها المصريون إبان المعركة (٢) . فثلا شبه بعض المؤرخين المهوليين
في كسبهم اندفاع الجيوش المصرية داخل ميدان المعركة بالطيور الجارحة
التي تنقض على فريستها دون أية رحمة . كما أوضحوا طريقهم في الحروب
من القاء الكتل الصلبة والحجرية على شتى الفرق الصليبية ، فضلاً عن مهارتهم
في استخدام السيوف والدروع لصد هجمات الفرنجة . كما أوضحوا أن
الجيوش كانوا متداخلاً فيما بينهما بطريقة لا تمكن التمييز والفرقة بين كل
طرف على حدة . وإن دل هذا على شيء ، فأنما يدل على مدى شراسة
وضراوة المعركة (٣) .

لقد ظهرت شجاعة المصريين طوال سير المعركة ، فعندما تم الاشتباك
بين الطرفين تمكن المصريون من تحطيم القسم الأول من الأقسام الخمسة

Anonymous, *Historia Herosolimitana*, cf. R.H.C. — H. occ., (١)
IV, p. 561; cf. also : Grousset, op. cit., I. p. 226.

Fruhcer of chartres, op.,cit. 159. (٢)

Anonymous, *Gesta Francorum*, Cf. .R.H.C.- occ. III, p. 528; (٣)

Anonymous, *Historia Nicaeval*, cf. R.H.C. - H. occ., V, p.178
178.

الجيش الصليبي وقتل قائده بيرفولد Bervold الذي شهد له المؤرخون بالبطولات وحنن التصرف في شتى المعارك الأخرى (١) وكذلك كان مصير أفراد القسم الثاني ، فقد وجه المصريون اليهم ضربتهم القاصمة مما أدت إلى هزيمتهم هزيمة شنعاء حيث لم ينج منه سوى جنديان . وعندما أدرك قائد هذا القسم ، وهو جلدمار كارينيل Geldmar Carpenel ، شدة الهزيمة التي أحاطت بجنوده حاول انقاذ الموقف بشئ الطرق ، ولكنه لم ينج ومات متأثراً بجراحه من فوق أحد الأبراج التي كان يشرف عليها (٢) .

أما بالنسبة للقسم الثالث من الجيش الصليبي فقد حاول قائده هيو سيد طبرية أن يبرز شجاعته التي اشتهر بها خلال سير الحملة الصليبية الأولى . ولكن كان ضغط الجيش المصري عليه يفوق تلك الصفات . ولذا لم يكن مصير هذا القسم أحسن حالا من القسمين الآخرين حيث تم سحقه وتدميره ، ولم ينج منه إلا قلة قليلة من ضمنها هيو Hugu ، تمكنت من الفرار تجاه يافا وواصلت سيرها حتى بلغت أسوار المدينة (٣) .

وأمام تلك المصائب العديدة التي حلت بالجيش الصليبي ، لمس الملك بلدوين مدى الانهيار الذي ظهر على بقية المقاتلين اللاتين الموجودين تحت قيادته في القسمين الرابع والخامس ، فمخشي الاستمرار في المعركة بهذه الصورة ، واضطر إلى الاجتماع بمقاتليه ، وخطب فيهم خطبة حماسية أخرى أسوة بما فعل من قبل حثم فيها على ضرورة استئناف القتال بنفس الحماسة والتلذذة التي كانوا عليها عند بدء المعركة ، فزادهم إيماناً ورغبة في الانتصار ثم خمر الملك ساجداً أمام الصليب المقدس ، الذي كان يحمله في هذا الوقت الأسقف جيرارد في مقدمة الصفوف ، معترفاً جهراً بذنوبه أمام الأسقف .

Albert d'Aix, op. cit., p. 549; Flucher of chartres op. cit., 157; (١)

cf. also: : Grousset; op. cit., I.p. 226.

Flucher of chartes, op.cit., , 159. (٢)

Ibid. (٣)

فزاد هذا الموقف من شجاعة المقاتلين وأخذوا يهللون للنصر. ثم امتطى بلدوين صهوة جواده العربي الأصل المسمى "La Gazelle" وسار من وراؤه فرسان بيت المقدس (١). وابتدأ الهجوم العنيف من كلا الطرفين لدرجة أن صليل ضربات السيوف كان يسمع من مسافة بعيدة. وقد شعر المسلمون بالتغير الكبير والمفاجيء الذي ظهر بوضوح على الصليبيين مما أثار دهشهم. فبعد أن كانوا في اليوم الأسبق منهارين يائسين في حربهم، والقلق ياد على وجوههم متخلدين من الحرب طريقاً لهم، أصبحوا يقاتلون بجرأة كبيرة (٢). وقد حاول المسلمون أكثر من مرة تحطيم هذه الظاهرة التي بدت عليهم. فتقدم أحد الأمراء المصريين بسرعة فائقة من ناحية الأسقف جيرارد محاولاً قتله والاستيلاء على الصليب المقدس الذي كان يحمله. ولكن منيت هذه المحاولة بالفشل وانتهى بقتل هذا الأمير. فأقدم أمير آخر من فوق جواده بمحاولة جديدة تهدف الهجوم على الملك بلدوين واعتياله، ولكن كانت ضربات هذا الملك أسرع منه فأصابته في مقتل وسقط من فوق جواده (٣).

وأمام هذا الوضع الجديد الذي طرأ على المعركة والذي رجحت فيه كفة الصليبيين، لم يتمكن المصريون من تحقيق انتصارات تذكر فاضطروا إلى الانسحاب. فأنجم البعض ناحية عسقلان تاركين كل ما يملكون من مؤن وأسلحة وذخائر (٤)، خاصة بعد أن شاع الخبر بينهم بموت قائدهم سعد الدولة الطواشي (٥) بينما أنجم البعض الآخر ناحية يافا لمحاصرتها منهزين

Grousset, op cit., I, p. 226. (١)

Gotfridi, op. cit., v.p. 506. (٢)

Albert d'Aix, op. cit., p. 551; cf. also : Grousset op. cit., I, pp. 226 — 227.

Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. — H. occ. V, (٤) p. 567; Gotfridi, op. cit., V, p. 507; Anonymous, Historia Nicaenval, cf. R.H.C. — H. occ., V, p. 178.

Grousset, op. cit., I, p. 227. (٥)

فرصة اشغال القوات الصليبية في مطاردة فلول المصريين المتجهين ناحية عسقلان (١) .

وجدير بالذكر ، أن بعض المؤرخين المسلمين أجمعوا على أن مقتله لم يكن بسبب احدى ضربات اعدائه ، وإنما كان ناتجاً عن وقوعه من فوق جواده فبعد أن انكسرت ميمنة جيشه ثم ميسرته تبقى هذا الأمير في نفر يسير من عساكره في القلب . وعندما كان يرمع بجواده وسط المعركة ، كبا به الجواد وسقط عنه إلى الأرض فخر صريعاً (٢) .

ويذكر المؤرخ ابن الأثير أن المنجمين كانوا قد تنبأوا بموت سعد الدولة بهذه الطريقة ، ولهذا السبب كان يحذر دائماً من ركوب الخيل ، حتى أنه لما تولى أمر بيروت كانت أرضها مفروشة بالبلاط ، فقام بحمله خوفاً من أن يزلق به فرسه أو يعثر . ولكن الحذر لم يمنع القدر المكتوب له ، فمات مما كان يحلده وبخشاء (٣) .

كيفما كان الأمر ، أصبح ميدان القتال ، بعد انسحاب المصريين مغطى بكثير من أدوات الحرب من الدروع والتروس والخنجر والأقواس وحقائب السهام وأنواع كثيرة من الأسلحة الأخرى . فضلاً عن كثرة جيش الموتى من كلا الجانبين الاملاى واللاتينى ، وما نجم عن ذلك من صبغ الأرض بلون الدماء . وقدر المؤرخون شهداء هذه المعركة من المصريين ما يقرب من خمسة آلاف فارس ورجال ، بخلاف عدد كبير من الأسرى .

Flucher of Ghartres, op. cit., p. 159.

(١)

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٠ ، العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ، لوحة ١٢٠ ، المقريزي : امتاخذ الخفا ج ٣ ، ص ٢٦ ، ابن نغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٢ ، ومن المراجع الأجنبية انظر ما يلي :

Matthew d'Edesse, cf. R. C.H. — H. Doc. Arm., p. 61 cf. also : Grousst, op. cit., I, p. 227.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ، ص ٣٦٤ .

بينما لم يفقد الفرنج سوى ثلاثمائة من المشاة والفرسان (١)

وبعد أن انهزم المصريون ناحية عققلان ، طاردتهم القوات الصليبية حتى أسوار هذه المدينة . وهناك اشتبك الطرفان في معركة رجحت فيها كفة الجيش المصري حيث تلقى الصليبيون ضربة قاصمة أنسبهم تلك الانتصارات التي حققوها في معركتهم السابقة عند مدينة الرملة . ونتج عن هذه المعركة أن فقدوا عدداً كبيراً من مؤخره جيشهم ومن أفراد الجناح الأيمن منه . فضلاً عما فقدونه من تلك الغنائم والأسلاب التي كانوا قد استولوا عليها من المصريين في المعركة السابقة (٢) . فأضطر الملك بلدوين أن ينسحب للوراء على رأس جيشه ، وانهزم ناحية يافا ولكن كان المصريون الذين انهجوا حصار يافا قد عمالوا على ترويع الأشاعات بانتصارهم الكبير على الصليبيين وتدميرهم للجيش الصليبي واغتيال ملكهم . فما أن علم أهل مدينة يافا بهذا الأمر حتى دب الفرع والخوف في قلوبهم وسادهم الحزن (٣) . وعتدوا اجتماعاً فيما بينهم للتفكير في الوسيلة التي تنقذهم مما هم فيه . فقرروا الكتابة إلى تنكريد صاحب انطاكية ، وأوضحوا له كل شيء ، وطلبوا منه باسم المسيح ومن أجل نصرته المسيحية ضرورة الحضور لفك حصار المسلمين لهم والانتقام لما حدث بالجيش الصليبي على أيدي المصريين . ولكن أثناء انتظارهم رد صاحب انطاكية جاءتهم الأخبار بأن الملك بلدوين قادم على رأس قواته تجاه المدينة ، فعادت الفرحة إلى قلوبهم وخرجوا لاستقباله . (٤) . أما بالنسبة للمصريين المحاصرين لمدينة يافا ، فعندما لمحوا من بعد جنود الفرنج القادمين ناحيتهم ، ظنوا في بداية الأمر

(١) Flucher of Chartres, op. cit., p. 159; Anonymous Gesta Francorum, cf. R.H.C. — H. occ., III, p. 529; Gotfridi, op. cit., p. 507.

(٢) Flücher of Chartres op. cit., pp. 159 — 160.

(٣) Ibid, p. 160; Anonymous, Historia Nicaenval, cf. R.H.C. — H. occ., V p. 178.

(٤) Gotfridi, op. cit., p. 507.

ويمكن الرجوع إلى نص هذا الخطاب في كتاب فوشية دي شازتر ص ١٦٢ .

أنهم باقى زملائهم الذين لم يتمكنوا من اللحاق بهم وأنهم نجوا لمساعدتهم فى حصار المدينة . وعلى ذلك لم يعروهم أى اهتمام . ولم يتوقعوا منهم القدر وأى مكروه (١) . وعلى العكس من ذلك كان موقف الفرنجة ، فكانوا على علم بأمر حصار المصريين للمدينة . ولذا سرعان ما انقضوا عليهم فجأة فحدث الهرج والمرج فى صفوف المصريين ، وتشتت قواتهم ، ولم يتمكنوا من السيطرة على زمام الأمور ، فلاذوا بالفرار متشرقين كل منهم فى ناحية . فلاحقهم الصليبيون إلى مسافة قصيرة ، وقضوا على عدد كبير منهم . ولم يواصلوا مطاردتهم حيث كانوا يعانون من شدة التعب وعناء المعارك السابقة (٢) .

وعندما دخل الملك بلدوين مدينة ياقا ، وعلم بأمر الرسالة التى وجهت إلى تكريد ، بعث إليه مندوب من قبله يخبره بحقيقة الأمر (٣) . وقد ظل بلدوين بالمدينة يوماً واحداً نال خلاله قسطاً من الراحة ، ثم غادرها فى اليوم التالى متجهاً ناحية بيت المقدس . وهناك قابله رجال الدين وسأل أهالى المدينة بالفرح والسرور ، وقدموا له التهانى اللازمة . وبعد ذلك أجه الملك الصليبي إلى القبر المقدس حيث أدى الصلاة هناك . ثم وهب كل ما جمعه من الأسلاب والتعائم التى حصل عليها من معاركه السابقة إلى مستشفى بيت المقدس للصراف منها على الفقراء والمرضى (٤) . وعلى هذا النحو تكون قد انتهت الجولة الأولى من الجولات الحربية التى قامت بين الصليبيين من ناحية والجيش المصرى من ناحية أخرى عند مدينة الرملة .

Ibid*, p. 508; Flucher of Chartres, op. cit. p. 167. (١)

Goffridi, op. cit. Loc. cit. (٢)

Ibid. (٣)

Albert d'Aix, op. cit., p. 553. (٤)

ولكن كان لهزيمة المصريين في هذه المعركة أكبر الأثر على نفس الوزير الفاطمي. للأفضل، فلم يستلم بسهولة لما حدث، وإنما أصر على خروج حملة أخرى ليقيم بها من الفرص تعويضاً للكارثة التي أصابت جيشه، ولتحقيق ما فشلت فيه الحملة الأولى من استعادة المسلمين لمدينة بيت المقدس مرة ثانية. فأعد جيشاً كبيراً بقيادة ابنه شرف المعالي بلغ ما يقرب من عشرين ألف فارس وعشرة آلاف رجل، تفضلاً عن الإعداد الغفيرة المخصصة لتوجيه كافة الدواب المحملة بالمؤن لسد حاجات المحاربين طوال فترة الحرب؛ هذا بخلاف أولئك المشولين عن تجهيز المؤن والأطعمة وتقديمها للمقاتلين. فكان كل منهم يحمل عصاً ورمحاً للدفاع عن نفسه (١). وكان هذا الجيش يتضمن كثيراً من العناصر السودانية والعربية الموجودة في المنطقة (٢) وتجمعت القوات الحجازية في عمقلان في منتصف مايو من عام ١١٠٢ م / رجب ٤٩٥ هـ. ومن هناك سلكت نفس الطريق الذي أتبعته في الحملة السابقة حتى وصلت إلى الرملة في اليوم التالي وعسكرت أمام المدينة حيث كان بوسعها تهديد كل من يافا وبيت المقدس (٣).

ويشير كثير من الكتاب الغربيين المعاصرين لهذه الفترة إلى أن قوات الجيش المصري كانت سيئاً في اتلاف المحصولات الزراعية المحيطة بالمنطقة عند اجتيازها الطريق الموصل من عمقلان إلى الرملة (٤).

(١) Flucher of chartres, op. cit., p. 163; Anonymus, Historia Herosolimitana, IV, p. 561.

(٢) الصي: عقد الجمان، ج ٢٠، لوحة ١٢٠، ابن الأثير: الكامل، ١٠، ص ٣٦٤ انظر أيضاً: Grousset, op. cit., I, p. 229

(٣) Flucher of chartres, op. cit., Loc. cit. Anonymus, Li Estoire de Jerusalem, cf. R.H.C. — H. occ., V, p. 641; Anonymus, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. — H. occ., IV, p. 561; cf. also: Grousset, op. cit., Loc. cit

(٤) Anonymus, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. — H. occ., IV, p. 561; Anonymus, Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem III, p. 531, Goffridi, op. cit., 509

ولكننا لاندرى تماماً حقيقة هذا الأمر ، إذ سكنت المصادر العربية سبوتاً تاماً عن هذا الموضع . ولذا لا يمكن القطع ان كان هذا التخريب مقصوداً وبشكل جزءاً من الخطة الحربية المرسومة من قبل المصريين من عدمه ، حيث إذا تم حصار المدينة وشدت الهجمات عليها يحرم الأهالي عند نفاذ مؤونتهم من الاستفادة من هذه المحصولات فيضطروا للتسليم . أو ربما يكون هذا الائلاف قد جاء عفواً بدون قصد ، لأن الطريق المتضمن تلك الرقعة الزراعية والذي تلف محصوله هو الطريق الوحيد الموصل بين عسقلان والرملة . فلم يكن أمام الجيش الا أن يعبر من هذا الطريق . ولكن نظراً لضيق مساحته لم يتسع لكثرة الاعداد التي يتكون منها ، فكان من الضروري السير الى الأرض المنزرعة مما أدى إلى ائلاف المحصولات الزراعية وفق ما حدث .

مهما كان الأمر ، عندما وصل المصريون إلى مدينة الرملة لم يكن بها الا حامية صغيرة لم تزد عن خمسين فارساً كان الملك الصليبي بلدوين قد تركهم لحمايتها . إذ لم يتوقع أية هجمات أخرى للمصريين في فترة متقاربة بعد هزيمتهم الكبيرة في المرة السابقة . ولذا كان الأمر سهلاً على الجيش المصري في حصاره للمدينة ، ولم يجد مقاومة كبيرة . وكانت الخطة تعتمد على تشديد الهجمات على المدينة ونصيب الضربات الشديدة بها . فسهل لهم هذا سرعة الاستيلاء عليها . وبعد ذلك انجهوا إلى كنيسة القديس جورج الواقعة على مسافة كيلو متر واحد من مدينة الرملة ، واستولوا على ممتلكاتها من كنوز ونفائس ثم أشعلوا فيها النيران . وكان في ذلك الوقت روبرت مطران المدينة يؤدي شعائر الصلاة بداخلها ، فلما شعر بما أصاب الكنيسة فر هارباً مما أحدث الفزع والاضطراب بين صفوف المسيحيين (١) .

(١) Flucher of Chartres, op. cit., p. 163; Albert d'Aix, op. cit., p. 591.
Anonymous, Historia Hierosolimitana, cf. R.H.C. H. ecc. IV, p. 561.

وهناك رأيان مختلفان حول موقف مطران المدينة حيال الهجوم المصرى عليها . ففى الوقت الذى يشير فيه بعض المؤرخين المعاصرين لأحداث هذه الفترة الزمنية ، ومنهم فوشيه دى شارتر ، بأن المطران عقد اجتماعاً مع كبار الأهالى للتشاور فيما أصاب المدينة من جراء استيلاء المسلمين عليها . وانتهوا فيه إلى ضرورة ارسال مندوب عنهم إلى الملك الإلاتينى بلدوين فى ياقا لطلب النجدة (١) . هذا ، بينما يذكر البرت ديكس ، وهو أيضاً مؤرخ معاصر لأحداث هذه الفترة التى نحن بصدها ، أن المطران تمكن من الفرار مع عدد من رفاقه لاجبار الملك بما حدث ، ولطلب نجدة صليبية لانتقاذ مدينة الرملة (٢) .

وأمام هذا التعارض فى القول نقف حائرين ، خاصة وأن هذين الرأيين صادران من مؤرخين معاصرين لتلك الأحداث . وفى اعتقادنا ان رأى الأول له نصيب أكبر من الصحة والصدق ، لأن الحصار المحكم المفروض على المدينة يحول دون التفكير فى الحرب الجماعى وفق ما أوضح المؤرخ البرت ديكس . فهذا الحرب سيكون بمثابة مخاطرة غير مضمونة النتائج ، ويتغلب فيه جانب الخسارة والتشل . كما أن خوف المسيحيين الموجودين داخل المدينة على حياة الأسقف يجعلهم يمنعون من المجازفة والخروج . ويتطوع أحدهم للفرار لطلب النجدة من الملك الصليبي . كما أن وجود أسقف المدينة بجوار الأهالى له أهمية كبرى فى رفع روحهم المعنوية وحثهم على ضرورة الصمود والمقاومة لحين هيجىء النجدة الصليبية . فليس من المعقول والأمر هكذا أن يتخلى عن هذه المهمة ويفكر فى الفرار لانجاز مهمة أخرى يمكن أن يقوم بها غيره من أهالى المدينة .

ومهما كان هذا الرأى أو ذلك ، فكان الملك بلدوين متواجداً فى ياقا

Flucher of Chartres, op. cit., p. 164; Anonymous, op. cit. (١)

Loc.cit

Albert d'Aix, op. cit., p. 591. (٢)

أثناء تحركات المصريين وحصارهم لمدينة الرملة . فعندما علم بذلك أسرع في الاجتماع بكبار قاداته وشاورهم في هذا الأمر (١) . وانتهى الرأي باصراره على الخروج على رأس مائتين من فرسانه غير مبال بالخطر الذي اعتاد عليه طوال معاركه السابقة ، لئلا يتصح الناصحين له بعدم الخروج مع هذا العدد القليل من قواته والانتظار حتى تنضم إليه فرسان الجهات المجاورة . ويبدو أن نشوة الانتصارات التي أحرزها على القوات المصرية في المرة السابقة جعلته يصل إلى درجة الغرور معتقداً في ضرورة انتصاره هذه المرة أيضاً بغض النظر عن حجم القوات التي معه (٢) .

وقد أبدى بعض المؤرخين اللاتين ومن بينهم جوتفريدي ، دهشهم الشديدة لتهور الملك وسرعة اندفاعه للخروج إلى الرملة مما أدى إلى اغفاله لأول مرة اصطحاب الصليب المقدس معه وهو البركة التي يستمد منها سائر الجيش القوة والشجاعة والثقة في النفس . فسادت روح التشاؤم بين سائر المسيحيين المقاتلين (٣) .

وجدير بالذكر ، أنه كان بإمكان الملك الصليبي إذ التزم الهدوء والتريث وأخذ بمشورة ونصح الآخرين ، أن يخرج على رأس آلاف من المقاتلين والفرسان الفرنج ، ويتجنب تلك الحسائر الفادحة التي أصابت جيشه وفق ما سيوضح فيما بعد ، خاصة إذا علمنا أنه كان متواجداً في يافا في هذه الفترة ما يزيد عن عشرة آلاف مسيحي بينهم عدد كبير جداً من أمهر الفرسان الغربيين كانوا قد أدوا مراسم الحج وفي انتظار هدماء الجو والرياح ليتمكنوا من الأبحار والعودة إلى بلادهم . ولكن الملك رفض ضمهم إلى جيشه ،

Ekkehardi, op. cit., V, p. 33.

(١)

Flucher of Chartres, op. cit., p. 168; Guillaume de Tyr, A history (r) of Deeds Done Beyond the Sea, P, 443.

Gotfridi, op. cit., p. 510.

(٢)

والخشي يمن معه من الفرسان . بل زحف أيضاً استدعاء أي من الفرسان
 الموجودين في المدن المجاورة له ، وخرج متهوراً في اتجاه القوات المصرية (١)
 ولكن رغم هذا أدرك بعض النبلاء المنتظرين بمدينة يافا هدوء الجو لرحيلهم
 إلى بلادهم ، ضرورة تأييدهم ومؤازرتهم للجيش الصليبي المتجه ناحية الرملة
 فحرقوا اللحاق به . وفي الحال كرسوا جهودهم من أجل الحصول على كثير
 من الخيول والأسلحة من الأصدقاء والمعارف في المناطق المجاورة (٢)

وعندما وصل الصليبيون إلى سهل الرملة أصابهم الذهول لكثرة عدد
 القوات المصرية الموجودة في ميدان القتال . وأدركوا تماماً عدم اتاحة الفرصة
 لهم للتراجع والانسحاب ، وان المعركة بين الطرفين ستكون غير متكافئة
 وسينتهي بهم الأمر بالقضاء والدمار وجلب العار والفضيحة على سائر المسيحيين
 وشعروا عند ذلك باليأس الشديد ، كما أدركوا تماماً أن النصر بعيد عنهم
 ما لم تصلهم نجدة صليبية سريعة . ولم يكن هناك في الأفق ما يشير إلى تحقيق
 هذا الحلم . فالقوات المصرية تحاصر المكان تماماً وتقف حاجزاً دون وصول
 أي امدادات فرنجية إلى ميدان القتال (٣) .

وأمام هذا الوضع ، حاول الملك بلدوين أن يهدى من روع الصليبيين
 وأن يعمل على رفع روحهم المعنوية وحثهم على القتال . فنحدث اليهم
 في كلمات موجزة قائلا :

أتم يا جنود المسيح ، يا أصدقائي ، اننا أمام الأمر الواقع

Flucher of Chartres, op. cit; p. 164; Anonymous, Li Estoire de (١)

Jerusalem, cf. R.H.C. — H. occ., V, p. 641, Cf., also :

Campbel, The Crusades, p. 165.

Flucher of Chartres, op. cit., p. 168; Guillaume de Tyr, op. cit., (٢)

I, p. 443.

Ibid, Anony mous Historia Hierosolimitana, cf. R.H.C. — H. (٣)

occ., IV, p. 561. cf. also : Setton, op. cit., I, p. 364. Grousset, op. cit.

I, p. 230.

إذ ليس بوسعنا التراجع ولا بد من الاشتباك مع عدونا .
 وعليكم أن تحاربوا بكل حماسة وشجاعة وقوة ، حتى لا تظهروا
 بمظهر الخوثة الذين تقاعسوا عن خدمة المسيح ونصرته ونصرة
 المسيحية . وثقوا ان الرب سوف يؤيدكم بقوته . ويجب
 الا يفكر احدكم في الهرب لأنه لا جدوى من ورائه ،
 ولا بد وأن نعيش بكرامتنا مرفوعى الرأس أو نموت خجماً
 من أجل نصره المسيحية . (١)

ولاشك أن هذه الكلمات الموجزة التي تعبر بوضوح عن مدى سيطرة
 الكنيسة اللاتينية على مصائر الناس ومقدراتهم في الغرب آنذاك ، كان لها
 صدى كبير في نفوس المقاتلين الفرنج مما رادهم ثقة وشجاعة . ولكن لم يكن
 لهذا أى أثر يذكر أمام تلك الاعداد الغفيرة من أفراد الجيش المصرى ،
 هذا فضلاً عما تميز به القادة المصريون من الذكاء والفتنة والخبرة في فن
 الحرب والقتال مما جعلهم يدركون تماماً حالة الفرع والارتباك التي سيطرت
 على الجيش اللاتينى . كما لاحظوا عدم تنظيم صفوفهم وعدم اكتمال فرق
 المشاة والفرسان كما حدثهم في المعارك السابقة التي خاضوها ضدهم . كل هذا
 أوحى للمصريين بتأكيد انتصارهم والانتقام من الهزيمة السابقة التي لحقت
 بهم في العام الأسبق (٢) .

بدأت المعركة بين الطرفين في ١٧ مايو ١١٠٢ م / ١٨ رجب ٤٩٥ هـ
 وكانت شديدة الضراوة . وفي بداية الأمر نجح الفرنجة ، رغم قلة عددهم
 في توجيه الضربات العنيفة للقوات المصرية وفي تثبيت صفوفها . ولكن هذا
 لم يؤثر على تلك الاعداد الغفيرة التي تكمن منها الجيش المصرى ، حتى ان

(١) Flucher of Chartres, op. cit., p. 168; Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. — H. occ., IV, p. 562.

(٢) Ibid; Guillaume de Tyr, op. cit., I, pp. 443 — 444

«الأس استبد بالملك الصليبي ومئات المقاتلين معه ، وأدركوا أنهم لن يحققوا
 أى تقدم ملحوظ خاصة وأنه لم يبق منهم سوى ما يقرب من خمسين مقاتلاً (١)
 فأضطر الملك بلدوين ومن معه إلى التقهقر ناحية حصن الرملة ، الذى كان
 مالمذى كان مازال تحت أيدي الصليبيين ونجحوا فى الدخول فيه والاحتواء
 بأسواره . وقد فطن المسلمون لهذا ، وكان باستطاعتهم اقتحام الحصن
 والاستيلاء عليه بدون عناء والقبض على غريمهم الملك بلدوين وباقى أفراد
 جيشه . ولكن حال غروب الشمس دون تنفيذ مهمتهم التى أرجأوا تنفيذها
 إلى صباح اليوم التالى . واكتفوا بتشديد الحصار حول المدينة ، الأمر الذى
 جعل الملك الصليبي وباقى أفراد قواته يفقدون كل أمل فى أنقاذهم مما هم
 فيه ، وأخذوا ينتظرون مصيرهم التمس فى القبض عليهم عند حلول الصباح (٢)
 ولكن عز على الملك أن يكون فى هذا الموقف الصعب ، مؤثراً الموت فى أى
 مكان آخر عن الاستسلام للمسلمين . فأتتبه تفكيره للهرب مخضياً فى أحضان
 الليل (٣) . وكان الحظ حليفه فى تحقيق هذا . فى أثناء دراسته لفكرة الهرب
 أتاه أحد شيوخ العرب إلى باب الحصن طالباً مقابلته شخصياً . وعند ما تم
 ذلك أخبره بأن المصريين سوف يبدأون الهجوم على الحصن عند بزوغ الفجر
 وعرض عليه مساعدته على الهرب ، فاستجاب الملك له . ورغم ما أبداه
 من أسف لفراق رفاقه ، إلا أنه رأى أن بقاء المملكة متوقفة على بقاءه على
 قيد الحياة . وقد أدرك بلدوين أن الموت والامر طريقهما واحد ، فى
 سكتنا الحالين سوف يجلبان الخراب على المملكة . ولذا فلا بد وأن يقدم على
 معامرة الهرب فيها أمل كبير للنجاح () فتسلل هو ومئاته وثلاثة من

Albert d'Aix, op. cit., p. 591. (١)

Ibid, Flucher of chartres, op. cit., p.168; Guillaume de tyr, op. cit., (٢)
 I, p. 445; Anonymous, Historia de Nicaenval, cf. R.H.C — H. occ.,
 V, p. 179.

Flucher of chartres, op. cit., p. 169. (٣)

Guillaume de Tyr, op. cit. Loc. cit., Matthew d'Edesse, op. cit., (٤)
 p. 61; cf. also Grousset, op. cit., I, p. 231, Runciman, op. cit., II, p. 72;
 Besant, op. cit., p. 245; Campbel, op; cit., p. 166.

أتباعه واجتازوا بحبهم خطوط المسلمين . وكان يصحبهم هذا الاعرابي هدف حمايتهم وتوصلهم إلى منطقة آمنة وبعيدة عن عيون المصريين . ولكن بعض الفرسان المصريين لمحوا الملك ورفاقه ، فطارقوهم ، وتمكنوا من إصابة البعض وأسر البعض الآخر . أما الملك فقد نجح في الاختفاء في جيوب إحدى الجبال المحيطة بالمنطقة . ورغم عمليات التفتيش الدقيقة والعديدة التي قام بها أفراد الجيش المصري للعثور على الملك ، إلا أنهم فشلوا في القبض عليه (١) . وكان بلدوين قد أخذ من ظلمات الليل ستاراً مخفي وراءه ويواصل من خلاله مسيرته . وعندما حل الصباح أخذ من الجبال مستقراً له ، وهكذا . وقد عانى خلال هذه المرحلة معاناة شديدة من الجوع والعطش والتعب الجسدي والنفسي . وظل هكذا حتى وصل إلى مدينة أرسوف في ٢٩ مايو ١١٠٢ م / ٢٠ رجب ٤٩٥ هـ (٢) . وهناك استقبله أهال المدينة بعد أن تأكدوا من كذب الإشاعات التي انتشرت حول مقتله . وتم علاجه

= ويرجع المؤرخون سبب مساعدة هذا الاعرابي للملك بلدوين إلى الجليل التي كان الملك بلدوين قد ضل مع زوجة الأعرابي . في أوائل ربيع عام ١١٠٦ م / ٤٩٤ هـ حدث أن انقضت الجيش الصليبي بقيادة بلدوين غل إحدى القبائل العربية النبية ليلاً في مخيماتها ، بعد اجتيازها وادي نهر الأردن سائلاً أياها كل ما تملك ، فضلاً عن وقع من وقع في الأسر من النساء والأطفال . بينما لم معظم الرجال مصرعهم . وكان من بين الأسرى زوجة هذا الاعرابي وكانت حل وشك . التمس قلماً علم بلدوين بحالتها أخذته الشفقة والرحمة بها فأطلق سراحها مع جاريتها وأطلق لها ياتين وقدرأ كبيراً من المؤن والشراب . فوضعت وليدها سائلاً على جانب الطريق . ولم يلبث زوجها أن عثر عليها فاشتمت تأثره بالملك بلدوين وأسرع لحاق به لي شكره . ويعد بأنه سوف يرد له هذه الجليل . وشامت الظروف أن ينفذ الاعرابي وعده وينفذ الملك من عهده التي كان فيها .

Anonymous, *Historia Nicaenval*, cf. R.H.C. — H. occ. V, p. (١) 179; Guillaume de Tyr, op. cit., I, pp. 445—446; cf. also : Grousset, op. cit., I, p. 232.

Albert d'Aix, op. cit.; p. 593; Anonymous, *Li Estoire de Jeru-(r) salem*, cf. R.H.C. — H. occ., V, P. 647; Gotfridi, op. cit., p. 510.

من الجراح التي أصيب بها ثم تركوه يأخذ قسماً وافرأ من الراحة (١)

وجدت بالذکر ، ان المصادر الاسلامية ذكرت أن الملك بلدوين بعد أن هرب اختفى من أعين المسلمين في أجمة قصب ، وعندما أدركه المسلمون فاضطروا إلى حرق تلك الأجمة للتخلص منه فوصلت اليه النار وأصاب بعض أجزاء جسده . ولكنه مع ذلك تمكن من الفرار إلى يافا (٢) .

ويالتحليل الجامع المانع بين الروايتين الاسلامية والصليبية ، لا نجد تعارضاً بيناً فيهما وإنما يمكن اعتبارهما مكملتين لبعضهما . ويلاحظ في هذا فالصدد أن كل فريق من المؤرخين قد تميز ليني جلده . الأمر الذي ترتب عليه وجود مثل هذا الاتصال في هاتين الروايتين . فاللاتين يريدون أخفاء ذلك التشويه الجسماني الذي ربما يكون قد أصاب ملكهم حتى لا يتقص هذا من شخصيته وقوته أمام أتباعه من ناحية ، وأمام المسلمين من ناحية أخرى . أما المسلمين فلعلهم أردوا بذكر الحقائق التمشير بالملك اللاتيني مما يهون من شأنه في عصر احتدم فيه الصراع بين الطرفين الصليبي والاسلامي . ويوضح مدى اذلاله أثناء حصار النيران له في أجمة القصب . وعلى ذلك لا يمكن انكار أي من الروايتين . بل يمكن أن نخرج من وراء كل هذا ياجتهاد اعلم يمثل شيئاً من الحقيقة . وخلاصته أن الملك الفرنجي بعد هروبه اتجه إلى أجمة قصب للاختفاء فيها ، فلما استشعر المصريون بهذا أشعلوا النيران فيها فأصيب الملك ببعض الشوّهات والجروح . ولكنه نجح في انقاذ نفسه بالفرار من هذه المنطقة متخذاً من الجبال مستقراً له حتى وصل إلى أرسوف

Albert d'Aix, op. cit. Loc. cit; Godfridi, op. cit. Loc. cit., Fluches (١) of Chartres, op. cit., p. 170; Guillaume de Tyr, op. cit., I, p. 446. Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium. Iherusalem, cf. R.H.C. — H. occ, III, p. 533.

(٢) ابن القلائس : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤١ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨

وهناك تم علاجه من الجراح التي أصيب بها وفق ما ذكر المؤرخون اللاتين -
 كيفما كان الأمر - تمكن المصريون في صباح اليوم التالي من شن هجوم
 عنيف ضد القوات الصليبية المحاصرة داخل حصن الرملة ، وانتهى الأمر
 بسقوط الحصن في أيدي المسلمين . واضطر الصليبيون إلى الالتجاء إلى برج
 الحصن الاحتماء بداخله باعتباره مركز الدفاع الوحيد والرئيسي لديهم .
 في ذلك الوقت . فحاول المصريون تساق البرج وقتال من بداخله ، ولكن
 باءت محاولاتهم بالفشل أمام ضربات العدو التي كانت توجه اليهم من أعلى
 البرج . ولذلك تحول تفكير القادة المصريين إلى اتباع خطة جديدة تعتمد
 على اشغال النيران في البرج . ونجحت خطتهم ، إذ أختق عدد كبير من
 الصليبيين ، ووقع الآخرون في الاسر . ولم ينج منهم سوى ثلاثة فرسان
 تمكنوا من الهرب . والوصول إلى القدس (١) وعند وصولهم اعلنوا نياً
 هزيمتهم ، فأثاروا الرعب والاضطراب في قلوب المسيحيين . وساد الحزن
 شتى أنحاء المملكة اللاتينية . وأعلن الحداد حتى يتأكدوا من سلامة ملكهم
 الذي لم تكن أخبار نجاته قد وصلت بعد إلى أي من مدن المملكة (١)

ولم يكنف المصريون بما أحرزوه من نصر على الصليبيين ، وإنما أرادوا
 مواصلة انتصاراتهم في التقدم إلى يافا بهدف استعادتها منتهزين فرصة خنثهم
 وروحهم المعنوية المرتفعة . وبالفعل وصلوا هذه المدينة وحاصروها براً
 وبحراً محاولين بشر خبر انتصارهم واضعاف الروح المعنوية لدى الأهالي .
 فأدعوا كذباً موت ملكهم ، ولكي يؤكدوا مصداق هذا الخبر قاموا بقطع
 رأس إحدى جثث القتلى الصليبيين في المعركة السابقة ، وكان وجه الشبه
 كبيراً بينها وبين الملك بلدوين ، والقوها وراء أسوار المدينة مدعين أنها

(١) Albert d'Aix, op. cit; p. 594; Anonymous, Historia Hierosolimitana, cf. R.H.C. — H. occ., IV, p. 563. cf. also Setton, op. cit., I, p. 364; Grousset, op. cit., I, p. 233.

Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem, cf. (١) R.H.C.H. occ., III, p. 535.

رأس ملكهم . فحدث ما توقعه المصريون من انخفاض مقدرة الأهالي في المقاومة وأهبّار معنوياتهم ، وحدث المرح والمزج بين سائر هالي المدينة (١)

وفي ٢٠ مايو ١١٠٢ م / ٢١ رجب ٤٩٥ هـ خرج الملك بلدوين على رأس عدد من صفوة الفرمان الصليبيين من أرسوف ، وركب إحدى السفن القريبة المتجهة إلى يافا محاولاً اختراق الحصار البحري الذي فرضه المصريون عليها .

وعند الاقتراب من المدينة أمر الملك بتعليق العلم الملكي على سارية المركب ليطمئن الأهالي بأنه مازال على قيد الحياة . ولكن عند مالمع رجال الأسطول المصري المحاصر للمدينة مارية المركب وتنبهوا إلى حقيقة الأمر ، أمرت السفن المصرية بالتحرك تجاه مراكب الصليبيين للاتقصاص عليها . ولكن كانت الأمواج عالية والعاصفة على أشدها ، مما أعاق خطة المصريين وهانتهى الأمر بالاحاطة بمراكبهم ونجاة المركب المتواجد عليها الملك بلدوين ودخولها ميناء يافا ، فعم القرح والسرور بين الأهالي وارتفعت معنوياتهم لسلامة ملكهم (٢) .

وكان بلدوين يرغب في استدعاء بعض الفرنج المتواجدين في مدينة بيت المقدس وفي غيرها من اجزاء المملكة اللاتينية للحضور اليه في يافا يهدف فلك الحصار البري والبحري المقروض على المدينة من قبل المصريين . ففتطوع أحد الشبان المسيحيين السوريين في فخل هذه الرسالة بتوصيلها إلى ذوى الأمر . وقد أخذ هذا الشاب من الليل ستاراً محقق من ورائه مأموريته ، متنهزاً فرصة الليالي الغير قرية ومستخدماً الطرق

(١) Albert d'Aix, op. cit., p. 595; cf. also Grousset, op. cit., II, p. 231.

Ibid Runciman, op. cit., II, p. 79.

(٢)

المتوبة التي كان يعرفها . وقد ساعده هذا إلى حد كبير في الوصول إلى بيت المقدس دون أن تراه أعين المسلمين . وهناك طمأن الناس على سلامة الملك ، فعم الفرح وزال الحزن ورفق الحداد . وسرعان ما تكونت فرقة من أفضل فرسان الفرنج الموجودين في هذا الوقت بلغ قوامها أربعمائه وأثمانين فارساً ، وأبحروا إلى أرسوف ومنها إلى يافا . وعندما أقربوا شاهدوا الحصار البحري المصري المفروض عليها ، فأضطروا إلى الفناء كل ما معهم في البحر حتى لا يستفيد به المصريون إذا ما تمكنوا من الاستيلاء على مراكبهم . مراكبهم . ثم اتخذوا من السباحة طريقاً يوصلهم إلى بر المدينة . وبالفعل وصلوا دون أن يصيهم مكروها (١) وفي الايام الأخيرة من مايو ١١٠٢ % أواخر رجب ٤٩٥ هـ وصل أسطول مسيحي مكون من مائتي قطعة بحرية أمام يافا يحمل عدداً كبيراً من الحجاج ، من بينهم صفوة من الفرسان الفرنسيين والانجليز والألمان . وقد تمكن هذا الأسطول من التغلب على الأسطول المصري ، مما أجبره على العودة مسرعاً إلى عسقلان . ولعل هذا الأمر قد شجع الملك الصليبي على الخروج من يافا على رأس جيشه للاقتاة المصريين المعسكرين على بعد ثلاثة أميال من المدينة . ودارت معركة عنيفة أدت إلى انتصار الفرنجة وهرب المصريين ناحية عسقلان في خلال الساعات الأولى من بدء المعركة (٢) . ونظراً لقلة عدد الصليبيين فانهم لم يلحقوا بهم وإنما اكتفوا بما استولوا عليه من المعسكر الفاطمي من خيام وأدوات وخيل ومؤن ونقود . وبعد هذا النصر عاد بلدوين إلى القدس (٣) واضعاً حداً لنهاية أحداث معركة الرملة الثانية .

(١) Flucher of chartres, op. cit., p. 172; cf. also : Grousset, op. cit., I, p. 235.

Flucher of chartres, op. cit., Loc. cit., Albert d'Aix, op. cit., p.(٢) 596; cf. also : Grousset, op.cit. p. 236.

Flucher of chartres, op. cit. Eloc. cit.; cf. also : Grousset, op.cit.(٣) Loc. cit.

ولكن يبدو أن نشوة الانتصارات الكبيرة التي حققها القوات المصرية على الجيش الصليبي في هذه المعركة ، جعلت الوزير الفاطمي الأفضل يصر على عدم التمخلى عن فكرة إرسال حملة أخرى إلى الشام لطرد الصليبيين منه واستعادة القدس . وسرعان ما كون في أغسطس ١١٠٥م / ذى الحجة ٤٩٨ هـ جيشاً كبيراً يتألف من خمسة آلاف مقاتل من الفرسان والمشاة المصريين والسودانيين بقيادة ابنه سناء الملك ، وذلك عدا قطع الأسطول البحري المصري (١) . ويبدو أن الوزير الفاطمي لم يكتف بهذا العدد الضخم من المقاتلين ، وأراد أن يضاعف من حجمه فاستعان بقوة الدماشقة لأنه كتب إلى ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق يعرض عليه أن يعاونه في قتال المشترك بينهما ، فاستجاب طغتكين لهذا النداء وأمدّه بالف وثلثمائة فارس من الأتراك ممن يجيدون رمي السهام (٢) . وإن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على وحدة للنضال والتضامن الاسلامي ضد العدو المشترك ، خاصة وإن هذا العمل بعد أول محاولة جادة يتعاون فيها المسلمون في كل من مصر والشام بهدف تحرير الأراضي المقلعة من برائن العدو الصليبي .

ولعل ما شجع الوزير الفاطمي الأفضل على خروج هذه الحملة في هذا الوقت بالذات هو علمه التام بخلو مدينة القدس من الحجاج ، فضلا عن اشتغال بعض الامارات الصليبية الأخرى بالنازعات الداخلية والخزوب الأهلية فيما بينها ، وخاصة تلك المنازعات القائمة بين بوهيموند صاحب

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٣٩٤ ، السين : عقد الجمان ، ج ٢٠ ، لوحة ١١٤٤
ومن المصادر والمراجع الأجنبية انظر ما يلي :

Flucher of chartres, op. cit, p. 182; Anonymous, Historia Herosolimitana cf. R.H.C. — H. occ. IV, p. 565; Grousset, op. cit., I, p. 246.

(٢) ابن القلائس : المصدر السابق ص ١٤٨ ابن الاثير ، المصدر السابق - ١٠ ص ٣٩٤
العين : المصدر لقتل نفس الجزء والفرقة ، المقرئى : اتعاظ الحنفا - ٣ ص ٣٥ وراجع أيضا :

Flucher of chartres, op. cit. p. 183; Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem; cf. R.H.C. — H. occ. III, p. 53.9

انتفاكية والامبراطور البيزنطي الكيس كومنن الأمر الذي يعرقل امكانية وصول مساعدات للقدس ، فيسهل ذلك على المسلمين مهمة انقضاضهم على الفرنج الموجودين بها واستعادتها . (١)

ويقول احد المؤرخين المجهولين الغربيين المعاصرين لتلك الفترة أن الوزير الفاطمي الأنضل طلب من قاده عدم العودة الا بعد القضاء على كل مسيحي الأراضى المقدسة وتدمير أثارهم المقدسة حتى لا يكون هناك أى حيب يجذب الحجاج الغربيين للحج والزيارة فى هذه المنطقة . ولضمان تنفيذ هذه التعليمات طلب الأنضل من قادة الجيش أن يقسموا على أن ينفذوا ما طلبه منهم (٢) .

وعلى الرغم من أن هذه الحادثة قد رواها أحد مؤرخى الحروب الصليبية القدامى ، الا أننا يجب أن نتقبلها بشئء من الحذر لأكثر من حيب . أولاً لأنه ليس من المستبعد أن يكون الأمر مدسوساً عن عمد من جانب هذا المؤرخ تعصباً لبني جلدته للتقليل من شأن الوزير الفاطمي بوجه خاص والمسلمين بصفة عامة انتقاماً لذلك النصر الذى أحرزوه على الصليبيين فى معركة الرملة الثانية عام ١١٠٢ م / ٤٩٥ هـ . فليصقوا بهم صفة عدم احترامهم للديانة المسيحية ولشعور المسيحي العالم ، ويكون هذا بمثابة وصمة عار فى جبين الخلافة الفاطمية بصفتها زعيمة العالم الاسلامى آنذاك . وثانياً ، لأنه ليس من المعقول أن يتعدى هذا الوزير على احدى الديانات السماوية ويتجاهل شعور أولئك المسيحيين المتواجدين معه داخل حدود دولته الأمر الذى يجعلهم يثورون ضده ويتربصون به وربما يكون الأمر كله قد اقتصر على خطبة خماسية القاها الأنضل وسط صفوف القادة والمقاتلين ،

(١) Anonymous, op. cit., p. 540.

(٢) Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. — H. occ., (٧) IV, p. 565.

شأنها شأن تلك الخطب التي تقال في مثل تلك المناسبات ، طالباً منهم الشدة والقوة والضمان في الحرب ، ومما يعزز هذا الاحتمال ان الحادثة المشار اليها لم يرد ذكرها في أي من المصادر العربية السنية . وبطبيعة الحال لو كانت هذه الواقعة صحيحة لكانت المصادر السنية أولى بالإشارة اليها لاتخاذها ذريعة للتشهير بهذا الرجل الشيعي والنكايه به ، فتكون نقطة سوداء في تاريخ طائفة الشيعة كلها لكونها لم تحترم رمز الديانة المسيحية الذي يتمثل في تلك الاثار المقدسة التي طالب الوزير الأفضل بتدميرها .

مهما يكن من أمر ، تجمعت القوات الاسلامية في عسقلان ، وكانت خططها تتلخص في جذب قوات الفرنج إلى الرملة وابقائها هناك ، في نفس الوقت الذي تتجه فيه بعض القوات الاسلامية إلى يافا لحصارها والاستيلاء عليها . وبعد ذلك تواصلت القوات الاسلامية طريقها ناحية بيت المقدس لمحاصرتها (١) . وكان الملك بلدوين في هذا الوقت متواجداً في يافا . فلما بلغه أمر تحركات الجيش الفاطمي ، تملكه القلق خشية تفوق الفاطميين وانتصارهم واستيلاءهم على المدينة بسبب كثرة أعدادهم . ولذا أراد أن يقابل هذه التحركات بدهاء كبير . فتظاهر بعدم معرفته بنية المصريين ، وفي نفس الوقت أخذ يجهز قواته سرّاً معتمداً على كل رجل قادر على حمل السلاح ، كما عمل على ترميم أسوار المدينة ولتعزيز تحصيناتها ، وخصص بعض من المقاتلين للدفاع عن أسوارها (٢) . وبعد أن انتهى من كل هذه الترتيبات خرج بجيشه متجهاً نحو عسقلان في نفس الوقت الذي كان فيه الجيش الاسلامي قد تحرك من عسقلان تجاه يافا . وذلك دون أن يعلم كلا الطرفين بهذا الأمر ، فالتقيا في مفترق الطريق عند الرملة (٣) . ومن هناك أرسل بلدوين مع مندوبه رسالة إلى أفرعمار Evremer بطريق بيت المقدس

Albert d'Aix, op. cit., p. 621. (١)

Ibid, Anonymous, op. cit., p. 566. (٢)

Anonymous, op. cit., Loc. cit. (٣)

(١١٠٢ - ١١٠٨ م) يرجوه فيها هو وعامة الشعب بالتضرع إلى الله وكثرة الصلاة والصوم والزكاة ليكون هذا بمثابة فدية لنجدة الفرنج من أي هزيمة قد تلحق بهم ، ولينحهم الله المساعدة والتصر على المسلمين . كما حمله ميتولية وعظ الناس وحثهم على ضرورة التطوع لحمل السلاح والاتجاه إلى ميدان القتال (١) . وعندما وصل الجيوش الملكي إلى المدينة المقدسة ، وعلم البطريرك بمضمون الرسالة ، أمر في الحال بدق أجراس الكنائس معلناً ضرورة اجتماع كل الناس أمامه وقال لهم «ياأصدقائي . . . ياخدم المسيح ، لقد حضر هذا الجيوش من قبل الملك بلويون ليخبرنا ، ان المعركة متبدأ مع المسلمين عند الرملة . ومن أجل تحقيق النصر لايد من التضرع إلى الرب ، وكثرة الصلاة ، وأخبرنا هذا المندوب الملكي بأن الملك قد أخرج يده المعركة إلى الغد ليوافق هذا يوم عيد القيامة المجيد . وعلى ذلك فاني أطلب منكم السهر طوال هذه الليلة للصلاة والتعب . واذهبوا في الغد إلى الأماكن المقدسة بالمدينة حفاة الأقدام ، تاركين كل شهودانكم ، مذللين أنفسكم ، متضرعين إلى الله بكل تقوى وإيمان ، لينقذنا من أيدي الاعداء وأما عن نفسي فاني ذاهب في الحال للوقوف بجوار الملك وأعلموا تماماً بأنني سوف أحت كل واحد منكم قادراً على حمل السلاح أن يأتي معي لسد حاجة الملك من المقاتلين» (٢) .

لقد كان لهذا النداء ضدى كبيراً لدى كثير من المسيحيين الموجودين في القدس فسرعان ما تقدم أكثر من مائة وخمسين مقاتلاً أبدوا رغبتهم في الانضمام إلى المعسكر الصليبي بالرملة لمناصرة زملائهم هناك . وفي صباح

(١) Flucher of Chartres, op. cit., p. 183; Anonymous, op. cit. Loc, (١) cit.; Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem, cf. R.H.C. — H. occ., III, p. 450.

(٢) راجع نفس هذه الخطبة في كتاب فوشيه أوف شارتر :

Flucher of Chartres, op. cit., p. 184.

اليوم التالي ذهب برفقة هؤلاء المنطوعين كثير من القساوسة وعلى رأسهم
أفريمار بطريق بيت المقدس حاملا الصليب المقدس (١) .

ويعطينا المؤرخ المجهول صاحب «تاريخ القدس» صورة حقيقية هؤلاء
الناس طوال سيرتهم من القدس حتى الرملة . فكانوا حفاة الأقدام ليكون
بصفة مشمرة ويطلبون المساعدة من الله . وعند وصولهم استقبلهم الملك
بفرح وسرور كبيرين . وارتفعت الروح المعنوية لدى المقاتلين الفرنج .
وانجبهوا جميعاً إلى كنيسة القديس جورج ، وهي على مقربة من هذا المكان ،
وأدوا شعائر الصلاة وقدموا الشكر والدعاء لله . ثم أمر الملك بعد ذلك بالنفخ
في الأبواق معلناً بدء المعركة (٢) .

أما بالنسبة للذين تبقوا في القدس ، فقد أخذوا يوزعون الصدقات
على الفقراء ويزورون الكنائس من أول النهار حتى منتصفه ، وكانوا ينشدون
وهم يبكون . كما تطوع المستنون من الرجال بالصوم حتى التاسعة من صباح
اليوم التالي ارضاء لوجه الله (٣) .

وأياً كان الأمر ، فقد التحم الطرفان يوم الأحد ٢٧ أغسطس ١١٠٥ م
١٤ ذى الحجة عام ٤٩٨ هـ . وكانت المعركة عنيفة وشرسة وغير متكافئة في العدد
فكان الجيش الصليبي لا يتجاوز خمسمائة فارس والقيين من المشاة ، بينما
كان عدد قوات المسلمين يفوق العشرة آلاف مقاتل بعد التعزيزات الجديدة
التي وصلت (٤) .

وكان الملك اللاتيني في أرض المعركة يشجع جنوده ويحثهم على ضرورة

Ibid, Albert d'Aix, op. cit., p. 622; Anonymous op. cit. p. 540;(1)
cf. also : Grousset, op. cit., I p. 244.

Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. — H. occ., IV(٢)
p. 560.

Flucher of Chartres, op. cit., p. 185 (٢)

Flucher of Charters, op.cit., Loc. cit; Anonymous, op. cit, p. 566(٤)

الصفود والثغاني في القتال من أجل نصرة المسيحية . وكان قد خصص له ما يقرب من مائة وستين فارساً لحمايته ضد أى مكروه قد يصيبه . ورغم كثرة القوات المصرية ، فلم يفكر أى من هؤلاء الفرسان في ترك الملك وكان الجيش الصليبي منظمًا يتكون من خمس فرق على رأس كل فرقة حامل الأبراق والرايات (١) . وكانوا يجاروا بشجاعة وحماة شديدة ، حيث كانوا يرددون وفقاً لقول البرت دكس «المسيح المنتصر .. المسيح الحاكم .. المسيح السيد» (٢) . وكانت المعركة تتسم بكثرة استخدام السهام والأقواس ، وشدة ضربات السيوف ، خاصة من جانب الدماشقة الذين اشتهروا بالسرعة الفائقة والمهارة التامة في تصويب أهدافهم بالسهم . وتمكنوا من محاصرة إحدى الفرق الفرنجية وتوجيه ضربات سهامهم . إليها فأنار هذا المنظر ثائرة الملك الصليبي ، وأخذ علمه الأبيض من إحدى إحدى فرسانه ، واقترح الصفوف ، وأخذ يهاجم هنا وهناك في نفر من فرسانه حتى تمكن من فك شبكة الحصار حول أتباعه . وفي الحال تشتت شمل الدماشقة ، ولحقهم الهزيمة ، واضطروا إلى الفرار من ميدان المعركة . ولعل ما دفعهم على هذا فرار كثير من المقاتلين المصريين إلى عسقلان وعلى رأسهم قائدهم مناء الملك الذي تمكن من الهرب مباشرة إلى القاهرة (٣) . ورغم هذا ، فقد صمد كثير من القادة المصريين طوال المعركة ، وعلى رأسهم حاكم عسقلان جمال الملك ولكن لم نطل به الحياة إذ مات شهيداً أثناء المعركة وقطعت رأسه ، وأخذها معه الملك الصليبي وحزن عليه جنده حزناً كبيراً (٤) وانتهت المعركة بانتصار الجيش الصليبي رغم قلة عدده .

(١) Albert d'Aix, op. cit. p. 622.

(٢) Flucher of chartres, op. cit., p. 186.

(٣) Ibid, Anonymous, op. cit. Loc. cit.

(٤) Flucher of Chartres, op. cit. Loc. cit; Anonymous, Li Estoire de Jerusalem, cf. R.H.C. — H. occ., V, p. 643; Anonymous, Historia Nicaenval, cf. R.H.C — Hocc., V, 180.

راجع أيضاً القرزى : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٥ ، العنى المصدر السابق ج ٢٠ لوحة ٢٥٥

وتم الاستيلاء على ممتلكات الجيش الاسلامي ، وعاد الصليبيون إلى يافا ،
ومنها اتجه الملك إلى القدس (١) .

وعلى الرغم من أن المصريين قد أظهروا شجاعة في القتال إلا أنهم خسروا
خسائر فادحة في الأرواح والأموال سواء المتصرف منها في الاعداد للحملة
أو التي دفعت فدية لاطلاق سراح كثير من القادة الأسرى . ولا يعني
هذا ان الفرنج لم يعانون من وراء ذلك ، وانما كانت خسائرهم هم أيضاً
باهظة لم تعرضها لا الفدية التي حصلوا عليها من المسلمين ولا ما اغتصموه
من وراء الاستيلاء على معسكر المسلمين (٢) .

أما بالنسبة للسفن المصرية المرابطة أمام مدينة يافا انتظاراً للفرصة المواتية
للانقضاض على المدينة وغيرها من المدن البحرية الأخرى الخاضعة للصليبيين
فسرعان ما وصلها انباء هزيمة الجيش الفاطمي ، فدب الذعر في قلوب
من فيها من المقاتلين خاصة بعد أن أمر الملك اللاتيني بالقاء رأس الأمير جمال
الملك على ظهر إحدى السفن المصرية . وحينذاك انزعج المسلمون عندما
علموا بحقيقة ما حدث لأمرهم . فأنثروا الانسحاب إلى عقلاق . وصادفتهم
في الطريق رياح شديدة أطاحت بعدد كبير من سفنهم وأقيت بها على
الشواطئ الصليبية ، فكانت فرصة ذهبية للصليبيين الذين قبضوا على من فيها
بينما لاذت السفن الباقية بالفرار إلى عقلاق (٣) .

وجدير بالذكر في هذا المقام أن المؤرخين اللاتين القدامى الذين سجلوا
أحداث معارك الرملة قد تحاملوا بشكل واضح على القوات المصرية والاسلامية

Anonymous, *Historia Herosolimitana*, cf. R.H.C. — H. occ., (١)
IV, p. 566; *Annales de Terre Sainte*, cf. A.O.L., II, p. 430.

Flucher of Chartres, op. cit., p. 187; Anonymous, *Li Estoire de*
Jérusalem, cf. R.H.C. — Hocc., V, p. 643; cf. also : Runciman, op.cit.,
II, p. 90; Grousset, op. cit. I, p. 245.

Anonymous, op. cit., Loc. cit Flucher of Chartres, op. cit, p. 188. (٢)

وحاولوا أن ينالوا من حماس وشجاعتهم وإيمانهم في حروبها ضد الصليبيين
ففي الوقت الذي يمتدح فيه هؤلاء المؤرخين شجاعة اللاتين وحماسهم وإيمانهم
الشديد من أجل تمجيد المسيحية ونصرتها ، لا نجد في كتبهم وتأليفهم الا
شذرات مبعثرة تتحدث عن موقف المسلمين الحقيقي أبان تلك المعارك .
فلاشك أن هؤلاء المؤرخين لم يعطوا المسلمين حقهم في اظهار سماهم الطيبة
في هذه الناحية ، والتي لا تقل بأى حال من الأحوال عما كان يتصف به
الفرننج . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى تحيز هؤلاء المؤرخين إلى بني جلدتهم
حقيقة أن المؤرخين المسلمين أمثال ابن القلابسي وابن الأثير وغيرهما
لم يبرزوا أيضاً تلك الصفات في مؤلفاتهم . ولكن هذا لا يعنى أنهم يتفقون
مع ما جاء في كتابات المؤرخين الغربيين . وإنما يرجع في المرتبة الأولى إلى
اهتمامهم بتدوين أهم الأحداث التي تمت في الأعوام التي يؤرخون لها على
طريقة السرد الحزلي ، بغض النظر عن تفاصيلها ودقائقها ، وخاصة إذا
كانت تتعلق بوصف المعارك الحربية بهذه الصورة الدقيقة التي اعتاد عليها
المؤرخون الغربيون .

هكذا تكون قد أنهت الحملة الثالثة والأخيرة من جولات العمليات
الحربية التي دارت رحاها في منطقة مدينة الرملة وانتهت معها تلك المحاولة
الضخمة التي قام بها الفاطميون لاستعادة فلسطين من قبضة الفرنج .
فكانت هذه الحملات الثلاث تمثل حلقة هامة من حلقات الصراع
الطويل بين الشرق والغرب والذي يمتد منذ عهد اليونان والرومان القدماء
حتى وقتنا هذا . وغير خاف ، ان تلك الحملات قامت في وقت كان فيه
العالم الاسلامي يعاني من التمزق والانقسام والضعف الشديد ، وفي وقت
كان فيه مركز الثقل يميل بقوة لصالح الغرب الأوروبي . ولو كان قد قدر
للقوى العربية الاتحاد ونسيان ما بينها من خلافات ، وغلبت الصالح
العربي العام على المصالح الشخصية لما أتاحت للدخلاء فرصة تحقيق أي
انتصار أو تثبيت دعائم دولتهم ولاستطاعت أن تحفظ فلسطين من عبثهم .

ومع ذلك تعتبر حملات الرملة الثلاث خطوة هامة نحو ظهور حركة
اليقظة العربية التي نمت خلال القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري)
وأخذت تسمى كالتيار في المنطقة وأثمرت ظهور شخصيات اسلامية لامعة
كان لها دور لا ينسى في بذور بذور الوحدة العربية الاسلامية مثل عماد الدين
زنكي ، وابنه نور الدين محمود ، وصالح الدين الايوبي مؤسس الأسرة
الايوية بمصر والذي نجح بعد جهاد كبير في تكوين وحدة اسلامية عربية
من الفرات إلى النيل وتطوير ممتلكات اللاتين وطردهم من بيت المقدس
بعد هزيمتهم شر هزيمة في موقعة حطين عام ١١٨٧ م / ٥٨٣ هـ واعتدل
بند ذلك ميزان القوى في المنطقة لصالح العرب ، إلى أن انتهى الأمر بطرد
الفرنج نهائياً من أرض الروبة عام ١٢٩١ م / ٦٩٠ هـ أيام السلطان المملوكي
الأشرف خليل .

بيان بالمختصرات الوارد ذكرها في حواشي البحث

- R.H.C. — H.occ — Recueil des Historiens des Croisades —
Historiens occidentaux.
R.H.C. — Doc. Arm-Recueil des Historiens des Croisades —
Documents Armeniens.
J. A. Journal Asiatique.
A.O.L Les Archives de l'Orient Latin.

قائمة المصادر والمراجع الاجنبية

أولا : المصادر : -

- Albert d'Aix, *Historia Hierosolymitana*, ed. R.H.C. — H, occ., t. IV,
Paris, 1879, (pp. 265 — 713).
Annales de Terre Sainte (1095 — 1291) , Publiées Par R. Robericht et
G. Reynoud in. A.O.L., t. II, (pp. 427 — 467).
Anonymous, *Li Estoire de Jerusalem et d'Antiochie*, ed. R.H.C. — H.
occ., t. V, Paris, 1889, (pp. 623 — 642).
Anonymous, *Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem* Ed. R.H.C.
—H. occ., t. III, Paris, 1866, (pp. 490 — 543).
Anonymous, *Gesta Francorum et Aliorum Jerosolimitanorum*.

وقد رجعتنا إلى الترجمة العربية لهذا الكتاب تحت اسم وأعمال الفرنجة
وحجاج بيت المقدس (ترجمة دكتور حسن حبشي . القاهرة ١٩٥٨ .

- Anonymous, *Historia Hierosolimitana* Ed. R.H.C. — H. occ, t. IV, Paris, 1879, (pp. 549 — 585).
- Anonymous, *Historia Nicaenvel antiochenna*. Ed. R.H.C. H. occ., t. V, Paris, 1889, (pp. 140 — 185).
- Baldrici, *Historia Jerosolimitana*. Ed. R.H.C. — H. occ., t. IV, Paris, 1879, (pp. 4 — 111).
- Ekkehardi, *Abatis Urou Giensis Hierosolymita*, Ed. R.H.C. — H. occ., t.V, Paris, 1880, (pp: 1 — 40).
- Fabri, F., *The Wandrings of Brother Felix fabri (1480 — 1483 A,D)*, translated by A. Stewart, 2 vols, London, 1893. cf. Palestine pilgrim's Text Society, IX,
- Flucher of Chartres, *A history of the expedition to Jerusalem (1095 — 1127)*, translated by frances Rita Ryan, U.S.A. 1969,
- Gotfridi, *Anonymi Rhenani Historia et Gestaducis Gotfridi*, Ed. R.H.C. — H. occ., t. V, Paris, 1880, (pp. 439 — 525).
- Guillaum of Tyr, *A History of Deeds Done Beyond The Sea*, 2 Vols, translated by E.A. Babock, A.C. Kery, New York, 1943.
- Matthew d'Edesse, *Extraits de la chronique de Matthew d'Edesse*. Ed. R.H.C. — Doc. Arm, I, Paris 1869 (pp. 1 — 150).
- Sonuto, Marino, *Secrets for the Crusaders to help them to recovoer the holy Land*, cf. Palestine pilgrim's Text Society, t.XIV, London 1896 (pp 1— 73).

لانيا : الراجع :

- Alphonse, *Travels in the East*, Edinbourg, 1839.
- Belloc, *The Crusades*, London, 1937.
- Benvenisti, *The Crusades in the Holy Land*,
- Bezant, *The History of Jerusalem* London, 1833.
- Campbel, *The Crusades*, London, 1935.
- Chalandon, *Histoire de la premiere croisade*, Paris, 1925.

- Conder, The Latin King-dom of Jerusalem, London, 1897.
- Defremery, Nouvelles Recherches Sur les Imaéliens ou Bathiniens de Syrie, cf. J. A. Sc. t. V, Paris, 1855, (pp. 5 — 76).
- Franklin, Palestine depicted and described, London, 1911.
- Grousset, Histoire des Croisades, 3 vols, Paris, 1948.
- Lamb, The Crusades, London, 2031 .
- Morgoliouth, D. S., Cairo, Jerusalem and Damascus, London, 1907.
- Muller, Castles of the Crusades, London, 1966.
- Runciman, S., A History of the Crusades, 3 vols, London, 1971.
- Setton, K.M., (Ed.) A History of the Crusades, 2vols, Philadelphia, 1958.
- Smith, Jerusalem. The Topographie and History, London, 1909.
- Stanly, P., Sinai and Palestine, London, 1856.
- Stevenson, W.B., The Crusaders into East, London, 1907.
- Hand Book for travellers in Syria and Pales tine, 2vols, London, 1888.

المصادر والمخطوطات والمراجع العربية

أولاً : المصادر :

- ابن الأثير ، (أبو الحسن — أبي الكرم المنقب عز الدين) :
الكامل في التاريخ — ١٢ ج . القاهرة ١٣٠١ — ١٨٨٢ م .
ابن تغري بردى (جمال الدين أبو المحاسن) :
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة — ٩ ج — القاهرة ١٩٤٢ .
ابن الجوزى (سبط) (أبو المظفر شمس الدين يوسف) :
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان — ٨ ج — حيدر آباد ١٩٥١ .
ابن حوقل (الحسب القاسم) :
صورة الأرض . لندن . ١٩٢٨ .
ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس) :
وفيات الأعيان — ٦ ج — القاهرة ١٩٤٨ — ١٩٤٩

- ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي)
 ذيل تاريخ دمشق - بيروت ١٩٠٨
 أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين)
 تقويم البلدان - باريس ١٨٩٠ .
 الاربلي (عبد الرحمن سبط بن ابراهيم)
 خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك - تحقيق
 مكى السبد جاسم ، بغداد ١٩٦٤
 الاضطخري (أبو أسحق ابراهيم بن عماد)
 المسالك والممالك - لندن - (١٩٢٧)
 الأنصاري الدمشقي (شمس الدين ابن عبد الله)
 نغمة الدهر في عجائب البر والبحر - ليزج ١٩٢٣ .
 العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحى)
 شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ٨ ج بيروت
 (بدون تاريخ)
 المقرئى (تقى الدين أحمد بن على)
 اعطاء الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء
 تحقيق د . محمد حامى عماد أحمد ، القاهرة ١٩٧١ ج ٢
 بنيامين التطيلي (ابن يونه النبارى الاندلسي)
 رحلة بنيامين - ترجمة عن الأصل العبري عزرا حداد ١٩٤٥
 ناصر خسرو علوى (أبو معين الدين)
 سفرنامه - ترجمة د . يحيى الحشاش القاهرة ١٩٤٥ .
 ياقوت الحموى (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الملقب شهاب الدين)
 معجم البلدان - ٦ . ح ، ليزج ١٨٦٦ - ١٨٧٠ .
 مؤرخ مجهول : مرصيد الإطلاع على أسماء الامكنة والبقاع
 ٦ ج قام بنشره ت . ج جوينبلى - طبعة بريل ١٨٦٤

(ثانياً) المخطوطات :

ابن ابيك (أبو بكر بن عبد الله)

كنز الدرر وجامع الغرر - ٩ ج - دار الكتب المصرية
«تصوير شمسي»

الادريسي (الشريف محمد عبد العزيز)

نزهة المشتاق في ذكر الامصار والأقطار والجزر والمدائن
والآفاق ، مكتبة البلدية «نسخة خطية»

العيني (بلال الدين أبو محمد أحمد بن موسى)

عقد الجمان في تاريخ أهل زمان - دار الكتب المصرية ،
تصوير شمسي .

النويري الكندي (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)

نهاية الأرب في فنون الأدب - ٥٥ مجلد - دار الكتب
المصرية «تصوير شمسي» .

المراجع :

جمال الدين الشيال (الدكتور)

تاريخ مصر الاسلامية - ٢ ج - القاهرة ١٩٦٧

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور)

العرب والروم واللاتين ، الاسكندرية ١٩٦٣ .

خليل خوري : خرايبات سورية - بيروت ١٨٩٠ .

سعيد عاشور (الدكتور)

الحركة الصليبية - ٢ ج - القاهرة ١٩٦٣ .

محمد محمد الشيخ (الدكتور)

الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها - اسكندرية

سنة ١٩٧٠ .